في قصور الأمويين

(مشاهدة تاريخية تصور العصر الأموي بأحداثه وروائعه)

بقلم

الدكتور محمد رجب البيومي

عميد كلية اللغة العربية بالمنصورة

الطبعة الأولى

١٤٠٠هـ — ١٩٨٠م

في قصور الأمويين

(مشاهدة تاريخية تصور العصر الأموي بأحداثه وروائعه)

بقلم

الدكتور محمد رجب البيومي

عميد كلية اللغة العربية بالمنصورة

الطبعة الأولى

١٤٠٠ هـ — ١٩٨٠ م


مطبعة السعادة
ميدان أحمد ماهر - ١٢ شارع الحمداوى
ت ٩٠٧٣٧٩
ص.ب ١١٩٩٧

الإهداء

إلى أخى الأستاذ الفاضل

محمود فهمى البيومى المحامى .

تقديراً لأخوته وإعجاباً بنبله

المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة

العصر الأموى ـ كسائر عصور الحياة ـ حافل بأحداثه ومفاجآته ، ومهما احتفل الكاتبون بتسجيل وقائعه وتدوين غرائبه ، فلا يزال لدى المؤرخ الأديب مجال واسع للتصوير والتحليل ، وسأختار فى هذه الصفحات من غرائب الأحداث ما يؤدى دوره القوى فى تفسير الأعمال وتحليل الشخصيات ، وتفهم الأسباب والنتائج ، مرتضياً وجهة الحوار الهادىء فى رسم الملامح ، ووصف المشاهد ، وتأويل البواعث ، ليرى القارىء صورة هذا الزمن فى ضوء كاشف صريح، على أنى تريثتُ كثيراً فى مطالعتى الهادفة ، ثم فى اختيار ما يجمل أن أقدمه من الزاد التاريخى، فآثرت بالحديث كل ذى دلالة بارزة فى كشف التيارات المتصارعة ، بحيث أضع الرسم الأصيل لجهات مختلفة من زوايا هامة توجب الالتفات ، ناسجاً من شتى الخيوط المتزاحمة ثوباً منسقاً لا يفقد فى مجموعه لوناً أصيلاً يقوى لحمته ، ولا أنكر ما بين هذه الألوان من اختلاف واضح إذ أنها بتباينها المتعدد ترسم صوراً متقابلة للدهاء والطيش والثورة والخنوع ، والخصب والجدب والصراحة والرياء والظلم والعدل والترف والشظف ، ولكنها فى مجموعها تبرز الصورة الحقيقية لعصر حافل بالغرائب والمفارقات إذ تتحدث عن السياسة والأدب والفن مصوّرة خطوات الحضارة العربية فى بدء طريقها الطويل وما تعاقب على أبطال هذا العهد من شقاء وسعادة ، وكيف هيأت الأقدار مَن وطّد لهم دعائم السطوة والجاه والفتح

بدءا ثم سار الزمن على عادته لجعل من وسائل البذخ والترف وأسباب المنافسة والتطلع ما عصف بهم فى النهاية وتلك سنة الحياة .

وقد آثرت أن أنحو منحى يقرب من المنهج الروائى فى تسلسل الحوار وتتابع الحوادث وتحليل الشخصيات ، ولم أشأ أن أجعل من كل فصل أقصوصة أدبية تلتزم السمات الفنية فى تلوين المسرح وتوشية الظلال والاسترسال فى التحليل والاستشفاف كيلا يخرج بنا الخيال الأدبى عن نطاق الواقع التاريخى ، فيظن قارىء ما أنى أجيز لنفسى أن أختلق من الحوادث والأعمال ما تجيزه القصّة لكاتبها الفنان ، وإذا كان من الكتّاب مَن فعل ذلك فى براعة وابتداع فإننى فى هذا المجال أقصر الحديث على الواقع وحده على أن يُساق فى سَمر سهل يدفع القارىء إلى متابعته وحسبى أن أقدم بعض المواقف التاريخية فى إطار جديد .

وإذا كان كثير من حديث هذه المشاهد مما يدور فى قصور الحاكمين ، فما أردت بذلك أن أتحدث عنهم وحدهم ، ولكننى كشفت عن مقومات العصر وعناصر ثباته ، وأدوات هدمه ، فى دائرة واسعة كان أولو الأمر مركزها الذى يتسع حوله المحيط ، كما لم أجعل دمشق حاضرة الخلافة الأموية وحدها مسرح الأحداث ، بل شاركتها مصر والكوفة والبصرة والمدينة ومكة والأندلس بحيث تتضح الدولة العربية فى مطارحها القريبة والبعيدة فى نطاق يتعرفه القارىء دون إجهاد ، وعسى أن يجد من وراء ذلك ما حرصت عليه من خصب المادة ، وسهولة الاستيعاب وحسن التوجيه ؟

د . محمد رجب البيومى

أخ جديد

ارتحل المغيرة بن أبى شعبة والى الكوفة من العراق إلى دمشق ملبياً نداء أمير المؤمنين معاوية بن أبى سفيان ، إذ أرسل يدعوه إلى قصر الخلافة على عجل . . . وكان المغيرة حازمًا أديباً يفكر فى كل شىء ، ويستشف ما عسى أن يأتى به الغيب من طوارىء وأحداث ، فأخذ يقول فى نفسه : ولماذا بعث إلىّ معاوية دون غيرى من الولاة ؟ أتكون وشاية سيئة طرقت سمعه فأورثته شكوكًا مبهمة ، وأحب أن يكشفها بالمشافهة والسؤال ، ثم ماذا صنعتُ بالكوفة مما لا يرضى عنه أمير المؤمنين ، أيكون بعض عيونه قد نقل إليه ما أبدِى من التساهل مع شيعة على وأنصار الإمام ؟ لقد حاولت أن أصطنع الشدة مع هؤلاء فرأيتها ريحًا تزيد الاندلاع وتؤجج اللهيب ، لأن البلد الذى امتحنتُ بولايته كان ولا يزال وكر الهاشميين ! ولا يمكن أن يذهب حب آل علىّ وبنيه من قلوب أهليه ما بين صباح ومساء ! ولئن اشتدّ عليهم بعضُ الولاة ليثيرون إعصاراً مدمراً يأتى عليه فلا تطمئن به حياة ، إن التساهل واسترضاء القلوب أدعى إلى جمع الشمل وتسكين الثوائر ، وكم سخط أمامى الساخطون ، ونقم دونى الناقمون ، فمحوتُ الغضب المتوقد ببسمة باهتة ، أو كلمة صافحة ، وأقسم لئن كنت قابلت السيئة بالسيئة لأنكأنّ جراحًا تندمل على حديد ، فيفجؤنى ما يسوء معاوية من التمرد والعصيان ! إن معى رأيى الناصح وحجتى البيضاء ، ولئن خالفنى أمير المؤمنين لأبسطنّ له رأيى عن صراحة وتصميم ، وهو بعدُ داهية محنك يميل إلى الإغضاء كما أميل ، فهو أقرب إلىّ مذهباً من سواه ، ولعله يشكرنى على خطتى الناجحة فأرجع عنه مثلوج الصدر منقطع الوسواس .

كل هذه المواجس كانت تدور فى نفس المغيرة حين تقدم إلى صاحب حرس الخليفة يلتمس الإذن عليه فى المثول ! ! وما كادت تقع عليه عينُ أمير المؤمنين حتى نهض مرحّباً ، وحياه محتفلا ، وأجلسه إلى جواره فى هشاشة وإقبال ، وقد بدأ المغيرة فأطرَى الخليفة بما يوحى به الموقفُ من تزلف مصطنع ، وتمدّح بالكياسة والرئاسة والدهاء . . ثم هنأه باجتماع كلمة الناس على خلافته ، إذ بايعه الحسن بن على راضياً ، ومن ذا بَعد الحسن ممن يأبه له أمير المؤمنين ؟ فأطرق الخليفة كالمفكر ، ثم نظر إلى صاحبه يقول : إنك يا ابن شعبة فى ذكائك ودهائك لتعلمُ أن الحسن ليس كل شىء فى الدولة ، فهناك من شيعة علىّ من تغلى نفوسهم بالموجدة والحسرة ، ولئن بايعوا اليوم مكرهين ، فإنهم يتطلعون إلى يوم قريب تسقط فيه رايتى ويرتفع لواء بنى هاشم كما يشتهون ، ولقد دعوتك من الكوفة لأستشيرك فى هذا الأمر الخطير ، فأنت فى موطن العلويين ترى وتسمع أضعاف ما ينقله الناقلون إلىّ من اللجاج والخصام ، ووالله لقد فكرتُ فى الموقف تفكير المتربص المتحفز ، وأخذت أستعرض أسماء الناقمين من شيعة علىّ ، والمناوئين من طغام الخوارج ، فما رأيت أقوى شكيمة وأوسع حيلة فى أولئك وهؤلاء من زياد بن أبيه ، فقد اعتصم منى بفارسَ وجمع من الأموال والرجال ما يفوق العد . . ولئن ظلّ على شقاقه للدولة ليكونن شوكة دامية ؤرق راحتى فما ألتذ بحياة ، وإنى لأعلم أن زياداً صديقك وصاحب سرك ، وأنت وحدك الجدير بتوطئة الأمر بينى وبينه ، ولك أن تضع من الشروط ما تختار ، لتمحو حب آل علىّ من قلبه ، وتجذبه إلىّ بأمراسٍ لا تنقطع ، وأعلاق لا تبيد .

فقال المغيرة مبتسما : علم الله يا أمير المؤمنين لقد فكرت خاليا فى أمر زياد ، فعرفت أنه قوة جبارة تضر وتنفع ، وتشقى وتسعد ، ولئن أمتع الله أمير المؤمنين

بإذعانه وولائه ليجدن منه أسداً هصوراً وفارساً مغواراً ، يرمى به البركان الهائل فيمنحه الظفر والاستقرار . . . فابتسم معاوية ابتسامة معبّرة وقال فى تطلع : اصغ إلىّ يا مغيرة ، لقد فكرتُ أنا الآخر فى أمر البصرة وما يموج بها من الشغب والثوران ، فلم أجد من يقوم لها غير زياد ، فهو أدرى الناس جميعاً بمضايقها الملتوية ، وأمراضها المعتلة ، وقد كان صاحب الأمر بها من قِبَلِ علىّ فجمع أهلها على طاعته ، وغرس فى قلوبهم حب بنى هاشم ، وقام بالإدارة والجباية والخراج كأحسن ما يقوم به مخلص غيور . . ولئن سهل الله كل شاق عسير ، فجذب زياداً إلىّ لأنامنّ فى قصر الخلافة ، وقد آويت منه إلى ركن شديد ، وحصن ذى معاقل وأسوار .

فهزّ المغيرة رأسه موافقاً ورأى أن يبسط فى أسباب القول بما يرضى أمير المؤمنين فقال : إن مهارةَ زياد لم تظهر أيام علىّ فحسب ، بل باركها عمر بن الخطاب ، وزكاها أحسن تزكية على رؤوس الأشهاد ، فقد أرسله مساعداً لسعد بن أبى وقاص فى حرب القادسية ، فكفاه الحساب والكتابة والخراج ، وقام بتسجيل كل صغيرة وكبيرة فى الغنائم والسبى على أحسن وجه يتاح ، ثم رأى سعد أن يبعثه رسولا إلى عمر بالمدينة فيبشر بنصر الله ، ويدفع بغنائم العرب ، فتقدم إلى الفاروق ثابت الجنان ، جرىء القول ، وشاهد عمر من ذكائه وثباته ما أكبره فى عينيه ، فقال له : أرأيتَ لو جمعتُ لك الناس فتُحَدِّثهم على منبر رسول الله بمثل ما حدثتنى به ، أتكون ثابتاً هكذا غير هياب ! ! فأطرق زياد فى أدب ، ثم قال لعمر فى ثقة : إننى أشدّ هيبة لك من الناس يا أمير المؤمنين ، وقد حدثتُك دون رهبة كما ترى ، فأولى أن يرسخ ثباتى أمام الناس ، فجمع عمر له القوم وتكلّم زياد بما أطرب وأدهش وأقنع ، حتى قال عمرو بن العاص : لله دره من شاب أريب لو كان هذا الخطيب قرشياً لساق الناس بعصاه ! !

فارتاح الخليفة لما سمع ، وقال فى ابتسام : لقد علمت ذلك عن عمرو ، وعلمت معه أن أبا موسى الأشعرى قد ترك له أمر البصرة حين كان والياً عليها من قِبَلِ الفاروق ، فشكاه الناس إلى عمر ، وقالوا : ترك أبو موسى الأمر لشاب حَدَث غير مجرب ، فاستدعى عمر زياداً من البصرة على عجل ، وناقشه فى أمر عمله ، فرأى الحزم والكفاية والسداد !! ثم كتب إلى أبى موسى يقول فى اعتزاز : عليك بزياد فلا تقطع أمراً دون مشورته ، فنعم النصير على الأعباء !!

ثم سكت معاوية لحظة ، كمن يتذكر أموراً بعيدة تواتيه بالسكون والاستجماع ، وقال مقابماً : وإنى لأعرف عن يقين يا مغيرة أنه يكنُّ لك المحبة والوداد،وقد أنقذك من الحدّ حين لجلج فى شهادته عنك أمام الفاروق،فإذا ذهبتَ إليه وأعطيته رضاى وأمانىّ فسيعتقد فيك الصدق والإخلاص .

فعضّ المغيرة على شفتيه ثم نظر إلى معاوية فى تخابث وقال : أما وَقَدْ مدحت زياداً يا أمير المؤمنين بكل ما ذكرت ، فهل بلغك ما تناقله الناس عنه يوم خطب بالمدينة لابن الخطاب !!

فانتبه معاوية فى اهتمام ، وقال فى حزم : بلغنى والله ما تعنيه ، وكنت منتظراً أن تنقله إلىّ حين حدثتك عن صاحبك دون تمهيد يطول .

فنظر المغيرة نظرة ماكرة ، وقال : إن مثل هذا الحازم الداهية البليغ لا بدّ أن يكون قرشياً من أعرق البيوت ، وقد ذكر الثقات أن أبا سفيان رحمه الله قد سمعه يخطب الناس على المنبر بعد القادسية فأسرّ لمن حوله أنّه أبوه ، إذ كان غفر الله له ، قد اتصل بسمية فى الجاهلية فحملت زياداً .

فقال معاوية فى حذر : وما منع أبى رحمه الله أن يعترف بابنه حينذاك ؟

فردّ المغيرة فى دهاء : لعله خاف بأس عمر ، فقد كان لا يقبل الخوض فى الأعراض ، فأطرق الخليفة كالمفكر ثم قال بعد تردد : هو ذاك يا مغيرة ، ولئن تردّدَ والدى فى استلحاق زياد ، فوالله لأجهرنّ باستلحاقه مهما تخرّص الناس !! فاذهب إليه سريعًا فى حصنه النازح ، وأبلغه أنى أخوه ، وسأعلنُ نسبه فى يوم مجموع له الناس .

قال المغيرة — وقد أخذ سمت الناصح الأريب — : وهبْ أن بنى أمية وهم رحمُك وذوو قرابتك قد عارضوك ومانعوك ، فماذا تقول يا أمير المؤمنين فى أمر يصعب عنه التراجع ، وتتشاجر حوله الآراء .

فقال معاوية فى تصميم أكيد : أنا الخليفة المطاع !! وإذا اقتنعت بشىء فما ينقضه سواى .

ثم نهض واقفًا وفى وجهه صرامة وجد ، فعلم أن الحديث قد انتهى مع الخليفة فاستأذن فى السفر إلى زياد ، فأذن له وأوصاه . . . ثم توجه لتوه إلى خراسان ، وفى نفسه مآرب وآمال .

— ٢ —

لمْ يشأ معاوية أن يستشير أحداً من أهل بيته فيما عزم عليه كيلا يتشعب الرأى أو يتزايد الخلاف ، بل كتم أمره فى نفسه ، وأخذ يستدعى سراً من يجذبهم إلى رأيه من شهود الاستلحاق ليؤدوا الشهادة أمام الناس دون تردد أو اضطراب ، وقد أهمّه هذا الأمر فكان يفكر فيه تفكير الجاد المصمم ، فإذا هجس فى نفسه هاجس بالتراجع والتريث قضى عليه فجأة ، دون أن يسمح له

بالاسترسال واللجاج !! وكأنه كان يوازن بين استقرار ملكه واستلحاق صاحبه ، فيجد أن الأسد المتربص بفارس دعامة قوية ، وركيزة وطيدة . . . ثم إنه بخراسان متيم على حب آل علي والوفاء لشيعته ، ولعله إن امتد به الزمن أن يجمع الناس حول الحسن أو الحسين ، فيشب ثورة هائلة تنقسم لها الدولة ويتشعب بها الأمر ، وقد يقوى شأنه فيقف أمام معاوية وجهاً لوجه ، وله من تشيعه لأهل البيت ما يجمع حوله القلوب النافرة في الكوفة والبصرة وسجستان وخراسان ، فلماذا لا يسارع باستلحاقه فيضم هذه القوة الوطيدة إلى عماده ، وينزعها نزعاً من شيعة عليّ فلا تقوى على نهوض أو تتحرك لقتال . . . لا بد إذن مما ليس منه بد ، مهما أثار اللجاج ، وأدهش الناس .

وفي أصيل يوم كادح شاق قضاه معاوية في التأهب والاستعداد ، توافد الناس أرسالا إلى مقر الخلافة بدمشق ، وهم لا يدرون شيئاً عن دعوة أمير المؤمنين ، وما تتمخض منه من أحداث ، فوجدوا زياد بن أبيه يجلس عن يمين معاوية في مقعد واحد !! وقد أعدت المجالس صفوفاً متلاحقة لتجمع وجهاء العرب من أشراف القبائل والبطون ، ثم جيء بمنبر مرتفع فنصب أمام الحاضرين ، وصفّق معاوية أولا فتقدمتْ أختهُ جويرية بنت أبي سفيان ، لتقف مبرقعة تتكلم ولا يرى وجهها الناس ، فسألها الخليفة فجأة : ماذا تقولين في زياد ؟ فقالت في ثبات : هو أخي يا أمير المؤمنين ، وقد حدثني والدي بذلك !!

فأخذَ القومُ لهذه المفاجأة الباغتة ، ونظر بعضهم إلى بعض يتساءلون بمقلهم الحائرة دون أن يفوهوا بحرف واحد ، ولكنّ معاوية يتطلع إلى الحاضرين في تجهم ينذر بالوعيد والتهديد ، فتنخفض الرءوس ، وتنطبق العيون فما تشي باستهزاء . . ثم صفق الخليفة ثانية بيديه ، فجاء المستورد بن قدامة الباهلي ،

ووقف أمام القوم فى عزم وتصميم ، فسأله الخليفة : ما تقول فى زياد ؟ فقال فى جرأة صارمة : هو ابن أبى سفيان وقد حدثتنى والدته سمية بذلك !!

فتطلع الخليفة إلى من حوله ، وتجاهل ما شاهد من الحيرة والارتباك ، ثم صفق ثالثة ، فحضر زيد بن نفيل الأسدى ، وسأله معاوية كما سأل من سبقه ، فقال فى دفعة واحدة : زياد أخوك وابن أبى سفيان ، ونسبته إلى عبيد كاذبة لا تحتمل النقاش .

فهز معاوية رأسه ، ثم صفق رابعة ، فحضر أبو مريم السلول وقال مندفعاً : أشهدُ يا أميرالمؤمنين أن أبا سفيان حضر عندى في الجاهلية ، وطلب منى بغيا ، فقلت له : ليس عندى غير سمية ، فقال : ائتنى بها على قذرها ووضرها فأتيته بها فخلا معها !!

فتجهم وجه زياد فجأة ، وبدا عليه الغضب ، وكان من قبل مرتاحاً لما يسمع ويرى ، ثم قال : مهلا يا أبا مريم إنما جئت شاهداً لا شاتماً !! مالكَ والقذارة أرشدك الله !!

فنظر معاوية إلى أبى مريم كمن يستنكر عبارته ، ثم تطلع إلى القوم فوجد الدهشة الحائرة تضطرب فى الوجوه ، فلم يعبأ بما شاهد ، ثم صعد لتوه إلى المنبر فقال : « الحمد لله الذى أحقّ الحق وأزهق الباطل . . . ألا إن زياداً أخى بشهادة الشهود ، وقد صححت الآن نسبته على مشهد منكم ، فهو من الآن زياد بن أبى سفيان والله على ما أقول شهيد » .

ثم نزل ودعا زياداً ليتكلم ، فتقدم فى حيرة وصعد إلى المنبر فقال : « الحمد لله الذى أحق الحق وأزهق الباطل ، ولئن كان ما شهد به الشهود حقًّا فالحمد لله ، وإن يكن باطلا فقد جعلت بينى وبينهم الله ، وهو على ما أقول شهيد » .

ونزل ليأخذ مكانه جوار الخليفة ويفيض معه فى حديث طويل ، حتى إذا طال الأمد أخذ الناس يتفرقون متعجبين ، وقد بلغ الغضب بعبد الله بن عامر أمير البصرة ـ وكان فى الحاضرين ـ حداً بعيداً ، وهو من وجهاء بنى أمية وله دالة ومكانة ، وفى تاريخه بطولة واستبسال ، فصاح فى الناس على غيظ ، لقد هممت إن آتى بقسامة من قريش يحلفون بالله أن أبا سفيان لم ير سمية أبد الحياة ، وأخذ الناس يفيضون فيما سمعوه وهم أقرب ما يكونون إلى الاستخفاف والتهكم حتى أصبحت دمشق جميعها وأصقاع العرب من ورائها أصداء تتردد بما كان من أمر معاوية وزياد . . . وبات العرب منهما فى تساؤل مريك ، وتعجب غريب .

— ٣ —

خلا معاوية إلى أخيه الجديد فى قصر الخلافة ، فأثنى ثناء عطرا على سياسة زيادة ، ومواهبه ، وقال فى دهاء خادع ـ كمن يظهر إغضاءه عن ماضيه ـ إن إخلاصك لعلى وتفانيك فى الولاء له كان دليلا على أصالة معدنك ورصانة أصلك ، وقد أحببت أن انتفع بقرابتك فأظهرت ما خشى أبوك أن يعلنه ، وضربتُ صفحاً عما يقوله الناس من هراء ، ولست أرجو غير أن أحل لديك محل على» !! فقال زياد فى استعطاف : لقد أخلصتُ العمل لعلى دون رحم ماسة أو واشجة قريبة ، ولكنك أخى القريب الحبيب ، وقد ارتبطتْ بك ارتباطا باركهُ الله وشهد به الناس ، وليكوننّ وفائى لك أبرّ وأعظم . . وإنى ـ وأيم الله ـ لأعلم ما تحملتَ من المصاعب فى إذعان من حولك من بنى أمية لأمرى معك ، ولم تكنْ فيما قمت به من الاستلحاق غيرَ جرىء ندب يتحدى العقبات ، ويذلّل الصعاب ، ولأرينكّ من سياستى فى العرب ما تقرّ به عينيك، وتستقر عليه دولتك ، وسأنهى القول فى ذلك غير مسهب ، لأدع العمل وحده

يقوم لديك ببرهان أكيد لا يقبل طعن طاعن ، أو افتيات دخيل ! فتبسم معاوية ابتسامة زاهية ، وقال : هذا ما أتوقعه منك ، وستلى من الآن أمر البصرة ، وأنت أدرى الناس بثوراتها المتعاقبة ، ودواهيها المتأصلة ، فبين أهلها من شيعة على من لا تطرف لهم عين ، أو تستقر بهم جنوب ، وهى مع ذلك ميدان فسيح للخوارج تتراكض فى حلبته جيادهم وتسلّ حرابهم ، مما أحالها أتونا يشتعل ، وسعيرا يلتهب ، ثم هى مع هذا وذاك مراد اللصوص والمتبطلين ممن لا يفيئون إلى خلق أو يعتصمون بدين ، وإذا كانت البصرة قد جمعت شذاذ الشيعة والخوارج والمارقين فليس بها أموى واحد يجمع حوله فئة من ذوى أحسابنا وأبناء ولائنا ، وأرجو أن تكون أنت هذا السيد الذى يغرس شجرتنا الذكية أكرم مغرس وانماه . . . ولا أزيدك علما بما تصنع فأن أبلغ برأيى بعض ما لديك . فهز زياد رأسه موافقا مؤمنا . . ثم قال فى حزم : لئن كان أمير المؤمنين قد أحاط خبرا بما يضطرب فى البصرة من أهواء وشيع فإنى أشهد الله لأجعلن هـذا البلد الثائر مثابة أمن ، وقاعدة استقرار ، ومن أعياه به داؤُه فعندى دواؤه ، ومن ثقل عليه رأسه فسأريحه منه ، ولن يجهر مغرض بكلمة سوء إلا قطعت لسانه ! على أنى لست محتجبا عن طالب حاجة ولو أتى طارقا بليل ، ولا حابسا رزقا ولا عطاء عن إبانه ، ولآخذن الولى بالمولى ، والمقيم بالظاعن ، والمقبل بالمدبر ، والصحيح بالسقيم ، ووالله لو فُقد حَبْلٌ بينى وبين خراسان لعرفت آخذه وشددت عليه النكير .

قال معاوية متهللا : بارك الله فيك يا أخى فسر على بركة الله ، حيث يتألق سلطانك وتزدهر أمانيك ... وسارت الركاب تخب بزياد إلى إمارته ، وكان من هواجسه المتشاجرة فى موج لايهدأ ؛ فهو يفكر كيف يلقى الناس فى البصرة بنسبه الجديد ؛ وإنهم ليعرفون عن أبيه عبيد كل صغيرة وكبيرة : ألم يبلغ

عطاء زياد ألفين من الدراهم ذات يوم من الأيام فيشترى عبيد أباه بألف ويعتقه أمام البصريين ، ويقول للملأ : هذا أبى وقد أحببت ألا يكون عليه سلطان فيتحدث الناس عن ذلك مسهبين ! ثم ماذا يصنع إذا غضب عليه أخوه من سمية وأذاع فى الناس أن نسبه فى أمية دخيل لصيق ! يكابد الأمير حربا من الأعداء وحدهم أم من الأولياء والأعداء ؟ على أن الأدهَى من ذلك أن البصريين يعلمون جميعاً أن هواه علوى ، وله بشيعة بنى هاشم صلة واشجة ، ومحبة أكيدة ، وهذا حجر بن عدى كبير الشيعة يقاسمه المحبة ويشاطره الوداد ، أفيصبح ما بين يوم وليلة خصما لدودا لقوم ساقاهم الحب وعاقرهم الولاء . . وأين يخفى وجهه من العيون التى تتطلع إليه فى دهشة بنظراتها الحادة فتحدثه بما لا يستطيع أن يؤاخذها عليه ، وأن لها لصوتا جهيرا تعرفه القلوب ، وإن لم تنصت إليه الآذان . . وماذا يصنع فى الابتسامات الهازئة التى ترتسم على الشفاه حين ينظر إليه القوم مستنكرين ساخرين ، تلك هى هواجس زياد تأخذ عليه السبيل فما تدعه يهدأ بنوم فى رحلة أو يستمتع بأفق فى مسيرا على أنه فى هذا الصخب المشتجر من الظنون يتذكر معاوية أخاه الجديد ، فيقول فى نفسه : أليس معاوية صاحب الأمر والسلطان وقد رضى بما أتوجس منه واهاب ، وإذا كان الخليفة فى دمشق لم يعبأ بما يقوله الناس ، وأنه ليقرأ فى عيونهم ما أقرأ من سطور الريبة والاستنكار ، وإنه ليلحظ فى ابتساماتهم ما ألحظ من بوارق الشماتة والاستخفاف ، وهو مع ذلك ثابت لا يتزحزح ولا يميد ! أيكون معاوية أوسع منى أفقا وأحكم حيلة ! ولم لا أكون مثله مترفعا عن السفاسف أبيا على الصغار ؟ أجل ، سأكون مثل الخليفة حازما مترفعاً ، وسأعاذى أصدقاء الأمس عن سيطرة واستعلاء ، ولتشهدن منى البصرة رجلا غير الذى كان ! إن أبا سفيان أبى وقد شهد بذلك الشاهدون عن صراحة ويقين ، فلأنتسبْ إلى هذه الدوحة السامقة ، ولأخلعْ عنى ثيابا رثة طالما

استحييت منها إذا خلوت ، وإذا كان الإسلام لا يفرق بين صغير وكبير من الأسر ، ورفيع ووضيع من الآباء ، فإن العصبية الجاهلية التى انتشرت اليوم بين القبائل قد نبذت تعاليم الإسلام وأصبحت تجعل من الأنساب الرفيعة والآباء الغطاريف ملاذا يحتمى به الفاخرون ، ويكترث له المتباهون ! لقد كان الفخر بالإسلام والعمل الصالح وخشية الله بضاعة نافعة أيام على بن أبى طالب ، أما وقد ذهب إلى ربه وتبدل الناس غير الناس فلا تركْ ديدنَ الذاهب الغارب، ولأزهَ بما يشمخ به الشامخون ، ولن يستطيع أحد أن يجاهرني بمخالفة ، ومعى سيفى وحولى جنودى وأعوانى . فليطو ضلوعه من شاء أن يطويها على حقده وغيظه حتى يدرج في أكفانه . . وَلأُصبحْ سيد العرب بالعراق ، وعاهلَ أمية بالبصرة وخراسان !

وما لبث أن دخل البصرة دخول الفاتح المدجج ، وبدأ فأعلن على المنبر نسبه الصريح إلى أبى سفيان ، وندد بأولياء بنى هاشم وأشياعهم من الشذاذ والعصاة ، ثم ثنى خطبته فأتى بكلمة بتراء كلها وعيد وتهديد ، وشفع القول فعمد إلى صديقه حجر بن عدى فساقه مكبلا إلى دمشق ليلقى مصرعه شهيداً محتسبا ، مع رهط من صحابته الأبرياء ! ورأى الناس أن الدنيا لا تبقى على حال ، لقد كانت تغير الطبائع والأخلاق ، فأصبحت ـ واعجباً ـ تغير الآباء وتوشك أن تغير الأمهات .

ويسمع معاوية في دمشق أنباء البصرة ، إذ أتاه من سيرة أخيه ما أعجبه وأبهجه ! فأخذ راسله مادحاً مشجعاً ، وشاء أن يعبر عمليا عن ارتياحه الجم لسيرته فى الحكم ومسلكه مع الأولياء والخصوم . فضم إليه اليمامة مع العراق ! وجمع فى قبضته ما فتح من الهند والبحرين وعمان فأصبح زياد بن أبى سفيان الرجل الثانى فى الدولة بعد أمير المؤمنين .

وأستأذن عبد الله بن عامر على الخليفة ذات مساء بدمشق ، فأذن له ب غضب وامتعاض ، وما كاد يصافح أمير المؤمنين ويأخذ مجلسه إلى جواره حتى نظر إليه فى ضيق وقال محتداً :

ما هذا يا عبد الله ، أتخوض فى نسب زياد مع الخائضين !!

فردّ عبد الله فى ثبات شجاع : لقد أدخلتَ بيننا يا أمير المؤمنين من لا نعرف من الناس ، فإذا كنت لا تحرص على أبى سفيان ، فإنى على أمية جدّ حريص !

فقال معاوية فى غضب كظيم : ان يحرص أحد على سلطان أمية كما يحرص زياد ، ووالله لو وجدت فى بنى أبى ، أميرا كزياد يهابه العراقيون ما ركبت هذا المركب الوعر ، أفأنتم منتهون !

فتراجع ابن عامر قليلا . . ثم قال فى ملق متزلفاً : نحن منتهون إن شاء الله إلى ما رغب أمير المؤمنين ولكن ، ما نصنع فى ألسنة حداد تأخذنا بقوارصها الداميات !

فنظر الداهية متأملاً صاحبه ، وقال فى همس هادىء : سأقطع الألسنة يا عبد الله بالتساهل والإغضاء . . ثم سكت ملياً وصاح : الشدة تكثر الأقاويل يا قوم فيندلع الحريق .

فردّ عبد الله مقاطعاً : كلا يا أمير المؤمنين الحزم مع الناس .

فابتسم معاوية ابتسامة ماكرة ، وقال فى تحبب : ما أغباك أيها اللجوج المكثار ! لقد جاء فى قول يزيد بن مفرغ لعنه الله :

ألا أبلغ معاوية بن حرب مغلغلة أحد من اليمانى
أتغضب أن يقال أبوك عف وترضى أن يقال أبوك زانى

أفتدرى ماذا صنعت به ؟

فقال عبد الله : علم ذلك عند أمير المؤمنين .

فتنهّد معاوية كمن يزيحُ عن صدره ركاما من الأشجان ، وقال فى همس : لقد توعدته فاستكان ، ثم عفوت عنه ، ولو كنت قطعت رقبته لأصبح شهيدا يذكره الناس مع الأبطال الصناديد ، ولجعلوا مصرعه كمصرع حجر بن عدى أنشودة الكرامة والعزة يحدو بها الركبان ! ثم رووا شعره الشائن وزادوا عليه وأطالوا فيه . . . هكذا الناس .

أما الآن فهم يستنطقون يزيد بن مفرغ فلا يجيب ! وهو ـ بعد ـ خائف راهب يزعجه شبح الدم المطلول .

ثم صفق الخليفة بيديه فأتى صاحب كفايته ، فأمره أن يكسو عبد الله بن عامر مطرفاً مذهباً ، وأن يكتب إليه بضيعة واسعة فى حمص !

وخرج ابن عامر مسروراً منتشياً يلهج بالثناء على زياد وأمير المؤمنين .

شكوى عاشق

كان الحرّ فى دمشق شديداً ملتهباً ، وقد جلس معاوية فى قصره الأنيق متضجراً برمًا بما يلفحه من شواظ ، ففتح نوافذ المكان من جهاته المختلفة ، وترك المراوح من فوق رأسه تستدنى النسيم وتستميله فما ظفرتْ منه بشىء ، حتى إذا بلغ به الضيق مبلغه أذن لجلسائه فتفرّقوا تباعًا ، وبقى مع أمين سرّه نصر بن ذبيان ، يبادله الرأى ويساقطه الحديث .

قال معاوية لصاحبه : لقد فتحتُ على نفسى باباً من العنت الكريه حين أذنتُ لهذه الوفود المتتابعة أن تتقاطر على مجلسى كالسيل ثم لا أستمع منها غير البغيض الثقيل . .

فابتسم نصر فى دهاء وقال : لو استشارنى الخليفة حفظه الله قبل أن يُرسل بمن يأتيه بهؤلاء لأشرت عليه بغير ما كان ولكنها إرادة أمير المؤمنين ، فنظر معاوية إلى صاحبه كمن يستطلع خبيئته ثم قال فى هدوء : لقد جمعتُ أنصار علىّ من أماكنهم النائية لأختبر وفاءهم بعد موته ، ولأسعدَ نفسى بعض الشىء حين أرى أعداء الأمس يتذللون فى مجلسى ويتخشّعون ، وما كنتُ أحسب أن كبرياءهم العلوية ستلازمهم هنا مع هيبة السلطان ورهبة الجنود .

فقال نصر : وقد أحسنَ أمير المؤمنين حين استمال قلوبهم بما منحهم من أعطيات ، فأصبحوا يلهجون بذكره ، ويتحدثون بخيره ، وتركوا مآزق الشقاق ومواطن الخلاف .

فتبسّم الخليفة فى دهاء وقال : أتظنّ يا نصر أنهم سيلهجون بالثناء علىّ ،

لقد خدعتْك نفسك يا صاح ! ! إن حبّهم لعليّ قد رفرف بين الجوانح والشغاف وقد طاولتُ اليوم أعرابية جافية ، وأرخيتُ لها العنان كى تقول ما تشاء ، ثم منحتُها ذخيرة ثمينة من المال ، وقلتُ فى تطلع : لو كان علىٌّ على قيد الحياة ما منحك درهماً واحداً ، فصاحتْ فى تحدٍّ صارخ : نعمْ ما كان الإمام علىّ كرم الله وجهه ليعطينى وبرةً من مال المسلمين ! ! أفتنتظر شكراً من هؤلاء ؟
فأطرق نصر كالمفكّر ، ولكن معاوية قال فى ملاطفة : لا عليكَ يا نصر ، فسأمنعُ هؤلاء من زيارتى بعد الآن ، وسأحادثُ من يفد إلىّ من شذاذ الأعراب ، فلديهم من الفكاهةِ النادرة ما يجلبُ علىّ فَيْضًا من السرور والانتشاء !

فقال نصر فى تأدب : هداكَ الله للبر يا أمير المؤمنين ، وإن على بابك من هؤلاء البُداة من يضيقُ بهم الحصر ، وهم يلتمسون السبيلَ إلى وجهك فلا يجدون ، وقد رأيتُ قبل دخولى عليك أعرابيًا يتوسل ويتزلف ويسألنى أن أفسحَ له الطريق إليك ، فما استطعتُ أن آذن فى غير ما أملك ، وما إخاله إلا منتظراً يترقب ، فإن شاء أمير المؤمنين أن أدعوه فذاك !

فقال معاوية فى مرح ظاهر : علىّ به يا نصر وعسى أن يُمتعنا بالشىء الطريف .

خرجَ نصر يدعو صاحبه ، وما لبثَ أن عاد بأعرابى نحيل معروق عليه أسمالٌ رثة تدلّ على فاقة متأصلة وفى وجهه شحوب ينطق بالحرمان واللوعة ، وأن طيوف الكآبة لترتسم على وجهه صورة حزينة تدعو إلى الحدب والإشفاق ، فما أن وقعت عينه على معاوية حتى أكبّ على البساط لثماً وتقبيلاً ، ثم نظر إلى الخليفة نظرة ضارعة كمن يستأذنه فى الحديث .

قال معاوية فى هدوء وقور : مَنْ أنتَ أيّها الرجل ومن أيْن أقبلت ؟

فقالَ الأعرابى فى نغمة حزينة والهة : أنا سعدُ العذرى يا أمير المؤمنين وقد طويتُ إليك الأرض من المدينة حافياً غير منتعل وجوعانَ غير آكل ، وظمآن غير ريّان . .

فضحكَ الخليفة ثم قال : وهل خَلَتْ مدينة رسول الله من الكرماء الأجواد حتى تضيق بك على رحبها الشاسع فتسرع إلى دمشق طاويا تتلمس هبة أمير المؤمنين !

فأسرع الأعرابى يقول : لستُ طالبَ مال ياسيدى ، ولكنّى مظلوم ينتصف لنفسه ، وقد نزلت بى شدة ليس لها سواك .

فقال معاوية : ولِمَ لم تتوجه إلى مروان بن الحكم حاكم المدينة من قبلى ونائبى عليها بين الناس !! دُون أن تعتسف الطريق !

فزفر سَعد زفرة حارة ثم قالَ وماذا أصنعُ إذا كان مروان بن الحكم غريمى العنيف .

فنظرَ معاوية إلى الرجل كالساخر وقال : مروانُ بن الحكم شيخ بنى أمية الحصيف وداهيةُ العرب غريمك أنت أيها المسكين ! !

فطأطأ الرجل رأسه إلى الأرض وقال فى كآبة : هذا ما كان !

فالتفتَ معاوية إلى نصر وقال أمر عجيب ! فابتسمَ نصر فى لباقة ، وقال : لقد صحّتْ فراسة أمير المؤمنين ، فهؤلاء الأعراب يقدمون علينا دائماً بالطريف العجيب ! !

ثم نظر الخليفة نظرة فاحصة إلى الأعرابى ، وقال له أبسط ظلامتك دون تزيد أو افتراء ، وسأفصل بينكما بالحق الصريح !

قال الأعرابى ، لقد أجبرنى مروان على أن أطلّق زوجتى سعاد وزادَ فسجننى فى محبسه حتى انقضتْ أيام العدة ، ثم اقترنَ بها كرها دون تودّد ، وتركنى هائماً تائهاً أبحث عن صبرى فلا أجد ، والتمس عقلى فلا أستطيع ! !

فنظر الخليفة إلى نصر . . . وكأنه يطلبُ أن يظهر رأيه فيما سمع ، فقال نصر : إن أذن أمير المؤمنين بابتعاد الأعرابى قليلا عن مجلسنا الآن كاشفته الحديث ، فصفّق مُعاوية بيديه فدخل حاجبه الأصهب فأمره أن يحتجز سعداً لديه إلى حين ثم أقبل على جليسه يستمع منه ما يقول !

قال نصرُ بن ذبيّان : لقد كان اختيار مدينة رسول الله لإمارة مروان ابن الحكم وضعاً للشىء فى غير موضعه ، فالرجل ـ فى رأيى ـ قاسٍ ظالم لا يلتزم حدّا رادعا فى تنفيذ رغبته وقد كانت المدينةُ مسرح رسول الله وخلفائه من بعده ، ساروا فى حكمها سير العدالة والرشاد فعرَف أهلوها عنهم سلامة الرأى وعدالة الحق ثم فوجئوا بمروان فرأوا ما لا يعهدون من شطط المغالاة ونزق الهوى ، فضجّوا وبرموا وما أظن سعداً هذا إلا محقا فيما يقول !

فنظر معاوية إلى نصر وأجاب فى هدوء لقد كان اختيار مدينة رسول الله لإمارة مروان وضعاً للشىء فى موضعه من وجهة نظرى الخاصة وليست وضعاً للشىء فى غير موضعه كما تظن ، فأنا أعلم أن مروان طموح يشرئب إلى الخلافة ويتمنى من أعماقه أن يرتفع على جنازتى صوت النوائح فى أقرب وقت يكون، فيسمو إلى مأربه الخطير ، وقد اخترتُ له المدينة بالذات ليأتى بها من شروره ما يدفع أصحابها إلى الشكاية والتنديد ، وأهل المدينة فيما أرى قوم غُيرُ أباة لا يسكتون على ضيم أو يصبرون على باطل ، وفيهم أهل الرأى والمشورة من نجباء قريش فإذا وصموا مروان ببوائقه فهيهات أن يسير له ذكر ، أو يتمهد طريق لمبتغاه ! !

وقد تحقق ما أملت فلم يحمده حامد ، ولم يعض بتقديره حديث . .

قال نصر حيّا الله أمير المؤمنين وبيّاه ، لقد خبر النفوس فكشف عن سجوف الرياء والمصانعة كما درس مدن الخلافة مدينة مدينة فرمى كل ناحية بمن يوافقها من أولياء حكمه وأصحاب سلطانه !! وما أرى في حادث سعد إلا فطرة للتشهير بداهية ماكر جاوز الحدّ وجانب القصد ، فإن رأى أمير المؤمنين أن يناقش الأعرابى مناقشة فاحصة ثم يصدر حكمه بما يشتهى كان فى ذلك صلاح أمره ، وطمأنةٌ وادعةٌ لمن يستجير بعدله من بأس الباطشين فصفّق معاوية بيده ثانية فدخل الحاجب محييا فطلب سعداً بإيماءة موجزة وسرعان ما أقبل ، وقد ذهب عنه الروع ! وأحسّ ببرد الراحة يسرى قليلا إلى نفسه فملك زمام قوله ، وشافه الخليفة فى ثبات واتزان .

قال الخليفة كيف تزوجت سعاد يا سعد !!

فقال الأعرابى حفظَ الله أمير المؤمنين إنها ابنة عمى ، وقد كنا صغيرين نخرج إلى البادية فنرعى الغنم فى طهارة بريئة ، فتمضى السائمة متلمسة نبات الأرض كما تشاء ونظل معا نتجاذب حلو الحديث ومعسول الكلام طيلة اليوم حتى إذا استأذنت الشمس للرواح نهضنا معا فجمعنا معا تفرق من الحيوان وكورنا راجعين إلى خيامنا القريبة ، وفى نفسينا شوق مبرح إلى أن تشرق شمس الغد فنستأنف ما كنا فيه من سمر وامتاع ، وما زلنا كذلك حتى أسلمنا الصبا الغض إلى عنفوان الشباب ، فتقدمتُ إلى عمى فطلبت يد ابنته ، فاشترط صداقا كبيراً أعاننى الله على تحصيله وتم اللقاء !!

قال معاوية ألم يكن بينكما حب تداوله الناس ؟ !

قال الأعرابى كان بيننا حب صامت جهدنا كل الجهد فى إخفائه واكتتامه

لما نعلم من أن ذيوع الشوق يحول دون الزواج !! وكانت صاحبتى عاقلة متزنة فلم تظهر لأهلها ما يكشف عن ميل أو ينم عن كلمة ، وكنت كما كانت أتكلف معارضتها أمام الناس ، وأطوى مَنْ دُونها من اللذات فى إسهاب مموّه حتى غفلت الأعين المتيقظة ، وسكن الهاجس النمام !!

فضحك الخليفة وقال فى ملاطفة حذقتما فن السياسة فى البادية يا رعاة الأغنام !!

فقال نصر فى تودد ظاهر إنها فطنة الأعراب يا أمير المؤمنين !!

فنظر معاوية كمن يفكر فى مشكل دقيق ثم قال : وكيفَ وقعتْ زوجتك فى شرك مروان !!

فتأوّه سعد تأويهةً حارة ثم قال ودموعه توشك أن تنحدر ، لقد مرّتْ بنا الأيام الأولى حلوة صافية ، فكنت أحضر لزوجتى ما تريد من الطعام واللباس والزينة ، وكنت لفرط صبابتى بها لا أمنع عنها شيئاً مما تود ، فلجأت إلى الاستدانة والإسراف حتى عصفت مآربها بما جمعتُ وادخرتُ ، وعرضتُ ناقتى وأغنامى للبيع عن سماحة واغتباط ... ثم زارنا والدها ذات مساء فلم ير ما يعهد من أسباب الرغد وأفانين الرفاهية وأدرك أن الفقر قد أطبق علينا بقبضته العسيرة ، فأرعد وأزبد ، وأشار بأن أعجّل بتطليقها لتجد الكفء الموسرَ من الأزواج فأغلظتُ له القول ، وجابهتُه بما أجبرنى عليه شططُه البالغ فى مغايظة ولجاج ... فرفع الأمر إلى مروان !! وحلّت ساعة المحاكمة فرأى الحاكم من سعاد بدراً يتألق بالجمال ويشرق بالفتنة والروعة فملكتْ عليه عقله ومال بوالدها ناحية فعرض عليه أن يتزوجها بعد أن يُكرهنى على تطليقها وبسط له يديه بما أخذ عينه من الدرّ والجوهر فرحّب عمى بمصاهرة الأمير ...
وفوجئتُ بمن ينهال علىّ بالسياط المحرقة فما انقطع شواظها اللاهب عن جسدى

الناحل حتى نطقت باليمين ! ! ثم سُحبتُ على وجهى إلى ظلمات المحبس أتأوه وأتوجع . . . ولا أدرى متى يكون الخلاص ، ومرّت شهور خمسة خلتها أعواماً ثقيلة بطيئة حتى إذا انقضت عدة الزوجة المكرهة على أمرها زُفّت إلى الأمير فى بيته . وأطلق سراحى لأهيم فى الطريق على فزع ووحشة ثم آتى أمير المؤمنين فأحتكم إلى مروءته وأطمع فى عدله الأكيد ! !

قال معاوية ـ وقد هز رأسه متأملا ـ ستمكث لدينا أياماً حتى تذهب الرسل وتأتى بما يكشف الحق الصريح !

فأكبّ سعد على البساط يقبّله ويمرغ فى ديباجه الناعم جبينه وخديه ثم نهض إلى منازل الوفادة ينتظر ما تتمخض عنه الأيام فى خطبه العنيف .

أما معاوية فقد خلا بصاحبه يستشيره ، وقد أدرك نصر بحصافته مايتردّد بنفس الخليفة نحو مروان ، فرأى أن يُشير بما يقع من نفسه موقع الإرتياح ، وقد أظهر جداً حازماً حين بدأ يقول . . إن اغتصاب زوجةٍ حسناء من رجلها الوفى جريمة نكراء ، ولو علم مروان أن المأساة قد انتهتْ إلى أمير المؤمنين ثم سَحبَ عليها ذيلَ الإغضاء لتمادى فى مظالمه ، وقد يأتى من المآثم مالا يُحتمل فتثور عليه النفوس ثورة ينتقل صخبها إلى مقام أمير المؤمنين ، فهو الذى أقامَه واليا يأمر وينهى كما يشاء ! ! فلابدّ من ردعه والتشهير به جزاء ما أسلفت يداه . . . ثم إنك يا أمير المؤمنين لن تنسى موقفه من مبايعة نجلك يزيد فقد شقّ العصا وجاهر بالمخالفة ، ولولا سعة صدرك ما أمعن فى اللجاج دون استحياء ! !

فرد معاوية فى دهاء : وهل كنت تريدنى أن أبادرَ بعزله حين أظهرَ الخلاف فى مسألة يزيد ! ! فوالله لو تم ذلك لانحاز إليه من أمية فريق كبير ، فأتعرض

للعصيان فى جبهتين متباعدتين ، جبهة داخليـة يشغب فيها ذوو الرحم من أولى القرابة ، وجبهة خارجية لا أزال أكابد من صعابها ما يرهق ويبيد ! !

ولعل فريقا من هؤلاء ينضمون إلى أولئك فيتزايد الشر ويعم البلاء ، لقد انتظرتُ على مضض ولم أشأ أن أعقب على ما قال بل بعثت إليه من التحف والـكنوز ما أسكتَ لسانه إلى حين ! وها هى ذى فرصة سانحة لابد من اهتبالها قبل أن تفوت فـكيف السبيل ؟

قال نصر بن ذبيان : سأرحل من الغد إلى المدينة يا أمير المؤمنين ، ولن أكامه فى خلوة ساكنة بل سأنتظر صلاة العشاء حتى إذا أقبل مع القوم وامتلأ المسجد بالراكع والساجد والقائم أعلنتُ إليه أمر أمير المؤمنين فى طلاق سعاد فأنّبه بذلك مَنْ غَفَلَ عن جرمه الشنيع ثم لا أغادر المدينة حتى أصحبها إليك وقد أخزيتهُ فى ملئه فيستـكين ! !

فَربتَ الخليفة برفق على كتف صاحبه .. وأومأ إليه إيماءة الموافق المقدّر ، وأذن له فى المسير :

وشهدت المدينة بعد أيام نصر بن ذبيان نديم معاوية وأمين سرّه يذهب إلى مسجد رسول الله فيصلى ركعتين خفيفتين بعد العصر ثم يطيل المـكث بالمسجد فلا يريمه إلى قصر مروان كما اعتاد رسل دمشق أن يفعلوا فى كل سفارة تتاح ! ! ويبلغ النبأ مسامع مروان فيتهيأ لاستقبال صاحبه ، ويفـكر فيما عسى أن يكون قد أتى به من المهام فيتوافد على ذهنه عشرات الأمور غير مسألة سعاد ، ثم يدير فى نفسه إجابات مختلفة عن أسئلة تتعلق ببيعة يزيد ، واحتيال معاوية وانقسام بنى أمية ، ليكون على استعداد تام للإجابة إذا ناقشه نصر بمسجد الرسول على رءوس الأشهاد حتى أذن المغرب فنهض الوالى كما يفعل دائما

إلى المسجد الجامع ورأى نصراً يجلس بجوار المنبر ، فأشاح عنه متجاهلاً مكانه وأدّى الفريضة مع المصلين ومكثَ فى رهطٍ من صحابه ينتظر صلاة العشاء ! ! وقد فطن نصر إلى وجود صاحبه فعلم أن المسْرَحَ قد هُيِىء للتمثيل الناجح ، إذِ اجتمع النظارة المرتجون وتطلعت الأسماع إلى ما سيقال ، فتوجه إلى الوالى مسلماً فى تحفظ واتزان ، ولم يشأ مروان أن يزيد على غير الإجابة الرسمية ، فرد السلام بصيغته المعهودة ، وتلاحظ الرجلان فى صمت ، وقد شخصت الأبصار وامتدت الأعناق مشرئبةً إلى مجهول لذيذ تتوقعه ولا تبين ملامحه فى وضوح ! !

وهنا يقول نصر : (يا مروان) :

لقد ساء أمير المؤمنين حفظه الله أن تُقدم على الزواج من امرأةٍ لا تريدك فتجبرَ زوجها إجبارًا على الطلاق وترميه فى غياهب السجن حتى تنقضى أيام العدة . . ثم تقذف به ليهيم تائهاً شاردًا حتى يدركه الخليفة بعدله الرحيم ، وها هو ذا يرسلنى لك لتطلق الزوجة المغصوبة دون إمهال على أن أسير بها فورا إليه فترد إلى كنفها الكريم .

فوجىء مروان بالخبر ! ! فبحث عن كلمات تسعفه في تبرير موقفه فأدركته الحيرة المذهلة وتصبَّب جبينه عرقاً ينطق بالخزى والخجل ، وقد أثار ذلك بعض من يبغضونه من أهل المدينـة ، فتجمعوا حول نصر يسرفون فى إيضاح مايرتكبه الوالى من مؤاخذات ! ! ونصر يفسح لهم من اهتمامه واعتنائه معلناً أن معاوية لا يرضى أن يُظلم إنسان في خلافته ، وأنه يُحاسب الولاة — أدنياء وبعداء — جميعًا على ما يقترفونه من مغارم بين الناس وسينقل إليه ما سمع دون تزيد أو مجاملة ! ! ثم توجه فى نشوة الظافر إلى مروان وأعلن أنه مسافر

مع سعاد فى الصباح ويريد أن يسمع يمين الطلاق ، ورأى الوالى أن دَوِىّ المسجد كاد أن يخرسه على وهن فى السمع وتقدم فى السن . وأنه إن أبطأ قليلا لا يأمن أن يقذفه شاتمه ببعض ما يؤذيه لا سيما وقد أدرك جنده الخاص هوانه على الخليفة فليدعوا بطائعيه ! ! إن أمرهم بإرهاب الحاضرين ، فلفظ اليمين فى ألم صامت وحزن دفين !

وأشرق الصباح فحملت سعاد فى هودج أنيق إلى دمشق ! ! وجدّ نصر فى مسيره حتى قدم إلى الخليفة فى بضعة أيام ! ! وقد نقل إليه صورة أمينة عما قام به فى مسجد رسول الله صلى الله عليه وسلم ، فاطمأن معاوية إذ تأكد أن مروان ليس من معشره فى عزة تمنع أو بأس يخيف . . . وصمم على أن يجاهر ببيعة يزيد دون اكتراث ، فقد أوصدت الجبهة الداخلية إلى الأبد بإخذال ابن الحكم وكساده ؛ وبقيت جبهة واحدة تتطلب الصبر الطويل .

ومثلتْ سعادُ أمامَ الخليفة ، فماذا رأى ؟ لقد شاهد حسناً أخاذاً يكتسح ويروع ، فعذر مروان — غريمه — إذ وقع فى سحرها الخلاب ، ثم أخذ يتحسس قلبه فى صدره فلمس طائرا مغلولا يضرب بجناحيه على غير استقرار . . . فأطال إليها النظر ، ثم صفق فأتى الحاجب لينقلها إلى الغرفة المجاورة ، كما أمر معاوية وكأنّ نصراً قد لاحظ ما طرأ عليه من انفعال فأطرق برأسه إطراقة قطعها عليه الخليفة حين قال :

مَن يدرى لعلها كانت تحب مروان وتبغض سعداً ، فكيف نجبرها على زوج تأباه !

فقال نصر : سلها يا أمير المؤمنين لتفصح عما تكنّ من صبوات ! !

فابتسمَ معاوية فى خبث وقال : لقد طلقها مروان ، فما من سبيل إليه بعد الآن ! ! فهل لك فى سؤال حاسم تكشف به عاطفتها دون حجاب ؟

فقال نصر : لقد لمستُ شواهد الفرحة على وجهها حين أخبرتها بالمدينة بأن سعداً ينتظرها بدمشق ! ! فأبدتْ من البشاشة ما يهتك كل نقاب ! !

قال معاوية فى عناد : وإذا خَيَّرْتُها بين سعد ومروان وأمير المؤمنين ، فإلى أى ناحية تميل ؟

فتلعثم نصر قليلا غير أنه سيطر على ثباته فجأة فقال : هى أمامك يا مولاى فسلها كما تشاء ! !

وكانت لحظة محرجة حين وقفت سعاد مرة ثانية أمام الخليفة لتسمع هـذا السؤال من شفتى أمير المؤمنين :

إيه يا سعاد أيُّهم أحب إليك أمير المؤمنين فى عزه وشرفه ونعمتـه ؟ أم مروان فى عسفه وجوره ؟ أم سعد فى خشونة عيشه وسوء حاله ؟

فنظرت الفتاة نظرة أخاذة ذات معنى كبير ، ورفعت جبينها المتلألىء إلى أمير المؤمنين ، ثم قالت فى تؤدة وثبات : مولاى لن أخذلَ سعداً وقد شربت معه من قبل كؤوس الصفا فلأَذُق معه الآن ضروب البلاء . . سعد منى وأنا من سعد ! !

دهش معاوية وأكبر وفاءها النادر ، فمنحها ثروة ثمينة تكف عنها بؤس الأيام ، ودعا بابن عمها المشوق ، فرجاه أن تمكث فى مقاصير حرمه بدمشق حتى تنقضى العدة ، وبعدها تزف إليه بعقد جديد ! !

فرقص قلب الأعرابى فى صدره ، وانكب على قدم الخليفة يلثمها فى غبطة واهتياج ! !

وخرجت الفتاة إلى حيث تنتظر يومها القريب ، ومن ورائها سعد يستحث الليالى ويستبطىء الأيام !

قال معاوية لنصر متراجعًا — وقد انفرد به — : أترانى كنت جاداً حين طرحت عليها هذا السؤال ؟

فقال نصر متخابثًا : معاذ الله يا أمير المؤمنين ! لقد كنت تستطلع حقيقة شعورها نحو مروان !!

على ضفاف النيل

جلس عبد العزيز بن مروان والى مصر فى قصره الذى بناه بحلوان يتأمل حاضره وماضيه ويقول فى نفسه : هأنذا أقيم فى مكان ناء عن عشيرتى وأهلى منذ عشرين عامًا ، وليس بمصر ما بدمشق من بهاء الخلافة وعزة الحكم ، واجتماع القبائل ، وازدحام الوفود ، ولو تركتُ وشأنى لفارقتُ إمارة مصر ، وانفردتُ بذوى مودتى فى قصور أمية على ضفاف بردى العزيز !!

ولكن أبى مروان رحمه الله قد ألزمنى إمارة هذا البلد ، وقال فيما أوصانى به : « لَأَنْ تكون رئيسًا فى مغتربك النازح ، تُصْدِرُ الأمرَ والنهى ، ويؤملك المؤملون من كل فج ، خيرٌ من أن تُضْحِىَ شخصًا مهملا فى بلدك وبيْنَ معارفك» ولعل الحق معه ولا أعلم !

ثم أسندَ رأسه إلى يده كأنما يراجع نفسه فيما تتحدثْ به إليه ، فابتسم ابتسامة عابرة حين تذكَّرَ أنه أميرٌ لا كالأمراء ، فجميعُ خراج مصر فى يده ، لا يرسلُ شيئًا منه إلى دمشق ، وأخوه عبد الملك يَستشيره ولا يملك أن يَعزله كسائر الولاة ، فهو أمير وطيدٌ لا أحدٌ يعلوه غير الله ، وماذا يريدُ من دمشق ، وفيها تتزاحم الأعباء ، وتتربص المكائد ، ويسير النفاق والشقاق على قدم وساق !!

أما هو فى إمارته الهادئة فآمن السرب ، نافذ الكلمة ، مجتمع الأمر ، ينظر حواليه فلا يجد غير الطاعة والإذعان ، وماذا يبتغى فى دمشق غير ذلك ؟! لئن كانت مراد الفصحاء من ذوى البلاغة والشعر وملجأ الوافدين من أولى التزلف والمديح ؛ فإن هؤلاء جميعًا يسعون إليه بمصر فينشدون مدائحهم مُسهبين.

ويغدق عليهم إحسانه كما يغدق أخوه سواء بسواء وحسبه أن تكون مصر على أيامه معقد الآمال ومناط الأحلام !

كان الأمير غريقا فى هواجسة تلك تتنقل به من مضطرب إلى مضطرب ، حين دخل عليه حاجبه الخاص يعلن أن الشاعر العذرى جميل بن معمر صاحب بثينة ، قد وفد عليه مســـلما ، وهو فى انتظار الإذن خارج الباب ، ليُؤنسَ الأمير !

وابتهجَ عبد العزيز بمقدم الشاعر : وفرح كأنما فوجىء ببشارةٍ سعيدة ، وقال فى نفسه : سأتحدّثُ إلى أنبلِ شاعر عرفه الأدبُ لعصره ، فجميلٌ إنسان أريحي لا يَؤُم الأمراء لمديح يُنشد ، أو عطاء ينال ، وقد طوىَ شبابه الأدبى لم ينظم بيتا واحداً فى الثناء على أحد ، ثم إنه عاشق عميد ، له من غرائبه وعجائبه ، مايجذب الأسماع ويستهوى الألباب ، وهو لا ريب سيمتعنى بأعذب سمر وأشهاه ! ولم يتمالك أن صاح بحاجبه : ادخله محترما مبجلا . . فأسرَع ليعود به فى تودد واحتفال .

نظرَ عبد العزيز إلى زائره الكريم فلم يَر ما يعهده فى وجهه من تألق الصفحة ، وبهاء الرونق ، وكانت له به معرفة بالجزيرة ـ بل رأى الشحوب الكئيبَ يصبغ ملامحه ، ويشى بانقباضه والتياعه ! ! وإن عليه من الهزال النحيل ما يؤجج لواعج الحسرة والتلهف ، فسألَ عبد العزيز فى أسف حائر : كيف تبدلت بك الحال يا جميل ؟

فابتسم الشاعر ابتسامة باهتة : وقال فى مرارة ، لقد ثارتْ على ثوائرى بالحجاز ، فهرعت اسكّنها قليلا على ضفاف النيل ، وعسى أن أجد هنا فى مجابهة اليأس الصارم برد الراحة والهدوء .

قال الأمير كالمتجاهل : أى ثوائر تعنى يا فتى العذريين ؟

فهمس الشاعر فى عتب : كأن الأمير حفظه الله لا يعلم ما تناقله القوم عنى من لواعج الصبابة وثوائر التباريح !!

فتراجع عبد العزيز يقول : كيف : وأنت شهير جهير ! لقد أسرعتْ إلى قصائدك الرقاق ، تنطق بكوامن الشجن ، ولواهب الأسى ، وإنها ــ شهدالله ــ لأغنية الركبان ، وترنيمة السامرين .

فأومأ جميل برأسه كالشاكر ، وسأل فى حيرة ! وماذا يرجع إلى قلبى المفطور من غِناء الركب ، وترنيمة السامر ، وكبدى حرى لاتعرف غير اللوعة والأنين !

فابتسم الأمير ، ونظر إلى صاحبه فى عطف ، ثم قال : لقد جئتْ عليك رجولتك يا جميل ، وإنها لجزية فادحة يؤديها الرجال فى كل جيل !! أخبرنى بربك عن طرائف وقائعك فقد ألممتُ بملح لطيفة منها ، وأريد المزيد !!

فتأوهَ العاشقُ تأويهةً حارة وقال : كأنّ الأمير لا يعلم أن الحديث ينكأ الجراح ، ويضرم السعير !! ولو كان ذهنى مجتمعا لبادرت فحدثتُ الأمير ، ولكن القلب تائه ، والفكر عازب ، واللسان بكىء .

فربت عبد العزيز بيديه على صاحبه وقال ملاطفاً : أعلم أن الحديث عن الأشجان يخفف كثيراً من جهامتها الصارمة ، وكم من ضائق بهمّه الكارب ، أذاع حديثه إلى ذى أذنين ، فانفرج ضيقه ، واتّسع صدره ، ولى أمل أن يكونَ حديثك معى مدعاةَ الترويح والتنفيس ، على أنى لن أتعبك فى تتابع السّرد ، فسأسأل ، وعليك أن تجيب .

قالَ جميل فى أدب : أما إن رغب الأمير فله أن يسأل كما يريد . . .

فضحك عبد العزيز فى نشوة ، وقال مبتسما : حيَّاك الله يا جميل ، لقد أبيتَ إلا مروءة عُذرية ! فأخبرنى إن شئت كيفَ بدا هيامك بهذه الغادة المفتان ؟

فزفرَ العاشق زفرة كاوية ، ثم أسعفه نشاطه فى فورة دافعة من روعة الذكرى فبدأ الحديث فى تتابع وكأنه يقرأ من كتاب :

قال جميل : كنتُ أسير ذات صباح هادئ النفس بوادى بغيض ، ومعى فصيلان أرعاهما ، فدنوتُ من الماء لبعض شأنهما ، فجاءت بثينةُ وهى يومئذ جويرية صغيرة ، فرَمت فصيلى ببعض الرمل فشردا هائمين . فملكنى الغيظ . وأغلظت لها القول . فردت علىّ بمثل ما قلت . فما أن سمعت حديثها . ورأيت قسماتها الثائرة . حتى انكسرت لها إنكساراً قسّم نفسى إلى شعب مختلفات !!

فقال عبد العزيز لعل هذا تفسير قولك القديم :

وأولُ ما قاد المودة بيننا　　　بوادى بغيض يا بثين سباب

فقال جميل . أجل أيها الأمير !

فنظر إليه عبد العزيز نظرة ضاحكة وقال فى تحبّب : عرفنا مطلع القصيدة . فكيف اشتهر أمركما فى الناس ؟

فعضّ جميل شفتيه كأنما يأسف لشىء قد كان ثم قال : لم ألبث أن جاش خاطرى بالشعر فنظمت خوالجى فى قصائد ومقطوعات . وطار بها الراوون فى كل مكان . حتى انتقلت إلى بثينة فأعجبتها أيما إعجاب . وطفقتْ تتعرض إلى حين ألمّ بحيها مشجعة محبيه فملكت فؤادى وأسرت نهاى !

فرد عبد العزيز كالناصح : لقد كنتما مخطئين فيما أتقيتماه !! كان الأولى أن تسكنا ما بقلبيكما من الحنين فلا تعلناه . ثم تدخل البيت من بابه . فتتقدم إلى والدها خاطباً . ولن يجد لها زوجاً كريماً مثلك . فيلبى الرجاء فى فرح وابتهال .

فأطرق الشاعر اطراقة حزينة : وقال فى أسف ملتاع : ليأذن لى الأمير حفظه الله أن أقول فى صراحة واثقة : إنّ العابر على الشاطئ لا يعرف

ما يكابده السابح من أهوال . . فالحبُّ كما كابدتُه حالةٌ جنونية تسلب العاقل نهاه . فلا يفكر فى أمره تفكير الهادىء الرزين . بل يظل كالحالم الواهم . تمتد أمامه الرؤى البهيجة دون أن يملك لها تحويلا واختلافا : فهو منها فى لذة تشغله عن نفسه . وتملك عليه منافذ حسه . حتى تحين الساعة الحرجة فيستيقظ من سباته . وقد تلاشى حلمه البهيج ولم تبق غير الحسرات . . .

فاهتز الأمير اهتزازة السرور . وقال فى غبطة : أنت شاعر يا جميل فى حديثك كما أنت شاعر فى قصيدك فبالله إلا أفضت فى هذا الإبداع ! !

فنظر إليه جميل كالعاتبْ وقال فى نغمة حزينة : علم الله ما أردت التزيد فى البيان . ولكنى أذكر لك أن رشادى كان منتهبا مسلوبا . وإلا فكيف جاهرت بصبوتى وأنا أعرف ما يعقب ذلك من الحرمان والفراق ! ! كما جرت به تقاليد البداة !

فرد عبد العزيز يقول : وقد كان رشاد بثينة مسلوبا ضائعاً كرشادك . . وإلا كيف جازفت بالتعرض إليك . وجاهرت بالهيام واللوعة . وهى تعلم ما يتهدد قبلها من أهوال . . . فأطرق جميل كئيباً . ولكن الأمير يواسيه فيقول : لا بأس يا جميل . فهذا ما كان فاعتدلَ الشاعر فى جلسته وقال فى حماسة : أقسم لك أيها الأمير أنى لم أعشق جمالها الفاضر وحده . ولكن عشقت فطنتها المتوقدة وذكاءها اللماح : لقد كنت أبعث إليها رسولى بالرمز الغامض لا يفهمه أحد من الخلطاء فتدركه وحدها كما أردتُ على خير وجه يتاح ! !

فقال عبد العزيز سيحلو الحديث كثيراً يا جميل فاضرب لنا الأمثال .

فنظر الشاعر إلى جليسه ثم وضع يده على جبهته كمن يستذكر حادثا بعيداً

كادت تمحوه الأيام وقال فى تؤدة وهدوء أعصاب : بلغ بى الوجد ذات عشية أقصاه وخشيت أن ألم بحيها المستيقظ ، وقد برقت الأسنة ولمعت السيوف ، وأهدَرَ والى المدينة دمى إن ذهبتُ إلى هناك ، فقلتُ : لا بد من الاحتيال ، وتوجهتُ هائماً لا أدرى أين أقصد ، فرأيتُ فى الطريق شيخاً وقوراً ، يقودُ نياقا كثيرة لبنى حنظلة ، فحييّتُهُ تحية مؤدبة ، فردّ على بأحسن مما حييت ، وأخذتُ أساقطه فنونا من الحديث حتى أنس بى وأنست إليه ، وسألنى عن حاجتى ، فقلت فى سذاجة متكلَّفة : أتعرف هذا الحى من بنى عذرة فقال : نعم ، فقلت إن لى ناقة سمراء تتظالع فى سيرها ، وقد ضلّتْ هناك ، وبيننا وبينهم من العداء ما لا أستطيع معه الذهاب إلى هناك ، فإذا قبلت أيّدك الله أن تذهبَ إليهم فتطوف بالمنازل سائلا عنها ، كان لك حسن جزاء وأوفاه من الله فقال الشيخ : دونَك نياقى فخذ منها ما تريد ، دون أن تحوجنى إلى مسيرة ساعات !! فتصنعت الغضب وقلت : يا سبحان الله ، أبحثُ عن حاجتى فأرجعُ بحاجة سواى !! وقطعتُ الحديث ، فلما رأى الحنظلى أسفى البالغ خرج إلى بنى عذرة يطرق الأبواب ، ويقول من رأى ناقة سمراء تتظالع فى سيرها طرقت هـذا الحى من أيام ؟ حتى إذا مر بمنزل بثينة قالت فى فرحة باسمـة : رأيتها يا عماه تطوف بشجرة الأثل أمس عند العشاء !! فمضى الرجل إلى شجرة الأثل فلم يجد شيئاً ، وجاء ينبئنى الحديث ، فشكوت له مسعاه ! وانتظرت حتى جاءت العشاء وذهبت إلى الشجرة ، فوجدت بثينة هناك !! ففرحتُ بلقائها فرحا جعلنى أطير كالعصفور ، وقلت فى ابتسام : من أنبأك أنى صاحب السؤال ؟ فقالت فى دلال « إن النياق السمر المتظالعة كثيرة ، وهى تأتى كل ساعة وتذهب فلابد أن يكون السؤال على غير مأتاه ، فأجبت بما قلت » !! فقلت مداعباً ومن أدراك أنى سأفهم الجواب ؟ فضحكت وقالت : سبحان الله ، من يضع السؤال يعرف الجواب !!

فهز عبد العزيز رأسه فى عجب وقال : وارحمتاه : إن للقلوب ألسنة لا تسمعها الآذان فقال جميل موافقا : هو ذاك ! !

ثم حضر شراب الليمون المثلج فشرب المتحدثان كأسين على رشفات متباعدة ، واستأنف عبد العزيز يقول : قد والله رحمتك يا جميل حين جاءتنى الأنباء عنك ، ووددت لو طارت بك الريح إلى مصر فأقنعك ببعض المشورة والسداد ! وطالما كنت أسأل : أليس لجميل أب عاقل ينقذه أو أخ راشد يهديه ؟

فائتلقت دمعة سريعة فى محجر جميل توشك أن تنحدر على خده الشاحب وقال فى اكتئاب : أبى ، ما أبى ، لقد أجهد نفسه فى غير طائل ، كنت أهيم فى الطريق إلى بنى عذرة فأراه يتسلَّل خافى متوسلا ، فأرحم سنه ودموعه ، فأرجع معه ، حتى تهدأ أجفانه فى مرقدها بعض الوقت ثم : أهبُّ متسللا ، فيتعقبه فجأة ، ويتتبع خطاى محاذراً أن يهدر دمى الناس ، ولا أنسى أنه قال لى ، ذات عشية ، والبكاء يخنق صوته فلا يكاد يبين أى جميل حتى متى أنتَ عَمِهٌ فى ضلالك ، ألا تأنف أن تتعلق بذات بعل يخلو بها وأنت عنها بمعزل ، ثم تقوم من عنده إليك فتغرّك بخداعها ، وتريك الصفاء والمودة وهى تضمرُ لبعلها ما تضمره الحرة لمن ملكها ، فيكونُ قولها لك تمليلا وغروراً . . إن هذا الذل مشين . . ولا والله ما أعرف أخيبَ سهما ولا أضيع عمراً منك !!

فتأمل عبدُ العزيز وجه صاحبه ، فرآه يصطبغ بشتى الألوان ، فرحمه من أعماقه ، ثم سأل فى اهتمام وبماذا أجبتَه يا جميل ؟ !

فقال فى لوعة : قلت إن الرأى ما ترى يا أبتاه ، ولكن هل رأيت أحداً قبلى قدر أن يدفع عن قلبه هواه ، أو استطاع أن يمنع ما قدر عليه ؛

والله لو قدرتُ أن أمحو ذكرها من قلبي أو أزيل شخصها من عيني لفعلت ؛ ولكن أين السبيل ؟

فقال عبد العزيز : وارحمتاه لك ولأبيك ! فتعجلَ جميل يقول في لهفة : بل وارحمتاه لبثينة ، لقد تحملت ألسنة الناس . وهي أنثى ضعيفة . يكربها أب فظ ثقيل ، وأخ غيور متسرع ، وقد تعرضت لسياطهما المحرقة حتى كادت أن تتمزق ، فلا والله ما همت بسلوان أو استكانت إلى ملام ! !

فعض الأمير على شفتيه وقال : لو كنت مكان أبيها أو أخيها ، لجابهت التقليد البغيض ، وزففتها إليك بكل اعتزاز ... ثم لا أدري لماذا يسومانها العذاب ، وقد تأكدا من طهارتكما ، واجتماعكما في ظلال الشرف والوفاء !

فرد جميل كالمأخوذ : ومن أنبأك يا مولاي بتأكدهما من طهارتي ، وهما موتابان يتسرعان ؟

فأجاب عبد العزيز في تؤدة : بلغني أن جارية وشت بكما إليهما ذات ليلة ، فقد ما يسترقان السمع في الظلام ، وكنتما تتناجيان ببعض القول ، فعلما عن طهارتكما ما يعجب ويزين ، وقال أبوها لأخيها .. قم بنا فما ينبغي أن نكدر هذين ! !

فقال جميل — وقد نظر نظرة شاردة — لقد حدث ذلك يا سيدي ، ولكنهما لم يتقيّدا بما رأياه ، بل انقلبا بعد ساعات يسومان ابنتهما الضعيفة أحر العذاب ويزعمان أن الحديث مُعدّ مُهيّأ ، ولم يكن خالصاً لوجه الشرف والعفاف !

فأطرق الأمير في تفكير ، ثم قال بعد لحظات : أصدقُكَ القول يا بنّي ، هما معذوران فيما يتوجسان مهما تأكدا من الطهارة والنقاء ؛ إن ألسنة الناس تجعل الصباح المشرق ظلاما حالك الجنبات ؛ وقد خاض في عرضهما الخائضون

فانتهبت الصدور بالأحقاد ! ! وكم ساءنى أن تدفع حبيبتك إلى الاتهام الفاضح ، دون أن تقدر ظروفها المحرجات مع ما بينكما من صبابة راعبة أوردتكما موارد الوبال ! ؟

فوقف جميل مرتاعا كمن لدغته عقرب بغتة ، ثم أدرك تسرعه فجلس متضايقا وقال : كيف دفعتُها إلى الإتهام الفاضح يا مولاى ؟ !

فرد عبد العزيز يقول : لقد نقل إلى الراوون أن أهل بثينة شاءوا أن ينفوا عن ابنتهم ما تذيعه من وجد وهيام ، فأعلنوا أنك لا تحب بثينة نفسها ولكن تهيم بجارتيها السوداء ، فغضبتَ لنفسك ، وواعدت صاحبتك على اللقاء فى برقاء ذى ضال ، ثم منعتها المسير حتى انبلج الفجر ليرا كما الناس ! ! وطاف بها الطائفون ليؤدوا عنها شهادة بلقاء ! !

فقال جميل فى انفعال يتحرق بصاحبه كذبٌ ما نُقل إليك يا مولاى ، والله ما اقترفتُ ذلك الشنار ، ولئن فعلتُ ما رويتَ ، لرميتُ نفسى من قمة شمَّاء ! !

فأجاب الأمير مشيراً بيده : صه يا جميل ، فالقصة لم تنته بعد لقد رددوا لك شعراً تقول فيه بشأن ما ذكرت :

ومَن كان فى حبى بثينة يمترى   فبرقاء ذى ضال على شهيد

فأى شىء شهدتْ عليك به برقاء ذى ضال ؟ إن لم يكن ذاك ؟

فتنهدَ جميل تنهداً شَف عن مرارة لاذعة ، وقال فى همس : هكذا تُحرف الأقوال ، لقد زعم المغرضون لبثينة أنى ألعب بها دون هوى مخلص فقلتُ قصيدتى الطويلة أفصح بها عما أكن من تباريح ، واستشهدُ بمطارح الأنس وملاعب الذكريات ، ومن بينها برقاء ذى ضال

فتبسم عبد العزيز ، وقال ملاطفا : رجوتُ لو نشدتنى قصيدتك هذه ، إذ لم يأت إلينا فى مصر منها غير هذا البيت اليتيم !

فرفع الشاعر رأسه فى اعتداد ، وقال سيدى الأمير قد آليت على نفسى ألا أنشد قصائدى للناس ، كيلا اتخذ الأكيد من حبّى مطيّة للحظوة والاشتهار وإنى لمستمسك بقسمى الأكيد ، فلا يكنْ فى صدرك حرج من هذا الإباء !

فدق الأمير كفا بكف وقال متعجباً : وكيف يعرف العرب قصائدك ، إذا أقسمتَ ألا ترويها للناس ؟ !

فعجّل الشاعر يقول : تختلج فى صدرى العاطفة المتوثبة فأقول القصيدة كما تجىء دون تنقيح وتهذيب ، ثم أتركها للراوية ينقلها لمن يريد ، دون أن أقوم لنفسى بالإذاعة والإعلان ! ! وقد أخذت العهد على لسانى ألا ينطق ببيت من الشعر فى غير الغزل العفيف حذار أن أحط بموهبتى إلى وهدات التملق والاكتساب ! !

فأظهر عبد العزيز عدم الإكتراث بما سمع ، وقال فى تودد : إذا أردنا أن نسمع بمصر شيئاً من غزل العرب فى البادية فما نصنع فى قسمك يا جميل ؟

فقال جميل فى بساطة ، ذلك شىء يسير ! أنشدك قصيدة من غزل صاحبى كثيّر عزة ، وإنه لمعجب رصين ! !

فهز الأمير رأسه متمهلا ، وقال فى دعابة متكلفة ؛ كثيِّر عزة راويتُك وتلميذك كما أعرف من قديم . ولكن شعره لا يجرى فى واديك ؛ وقد سمعت ما سمعت من غزله فما خرجت بطائل يا جميل ! !

فأظهر الشاعر تحمساً لصاحبه ؛ وصاح فى اهتمام : اسمع يا مولاى قول كثيّر ؛ ثم احكم عليه حكم الفاحص المستجيد !

يقول العدايا عزّ قد حال دونكم شجاع على ظهر الطريق مصمم

فقلتُ لها والله لو كان دونكم جهنم ما راعت فؤادى جهنم
وكيف يروع القلب يا عز رائع ووجهك في الظلماء للسفر معلم
وما ظلمتْك النفس ياعز فى الهوى فلا تنقمى حبى فما فيه منقم!

فتبسمّ الأمير تبسم المرتاح ثم سكت قليلا وقال ، أخالك قد رويتَ من شعر صاحبك أحسنه وأرقاه ، ولكن اسمع إن شئت قوله :

ألا ليتنا يا عز من غير ريبة بعيران نرعى فى الخلاء ونعزب
كلانا به عرّ فمن يرنا يقل على حسنها جرباء تعدى واجرب
إذا ما وردنا منهلا صاح أهله علينا فما ننفك نرمى ونضرب
وددتُ وبيت الله أنك بكرة هجان ، وأنى مصعب ثم نهرب
نكون بعيرى ذى غنى فيضلنا فلا هو يرعانا ولا نحن نطلب

أفكان هذا القصيرُ الدميم عدوّها أم حبيبها حتى يتمنى لصاحبته الرقّ والجرب ، والرمى والطرد والمسخ ! أفهذا إحساس صادق يا جميل ؟ !

فتنمر الشاعر – كمن يستعد للوثوب – وقال فى حدة : إنه إحساس صادق أيها الأمير ، وان يدركه غير عاشق محروم ، لأن العاشق يعبّر عن خلجات نفسه فى الصورة الأنيسة الحبيبة إذا هدأ ، وقد تتخبط عاطفته فى مأزق نفسى ، إذ يتعرض لساعة عاصفة قاتمة تميد برجائه ، فتمنحه الصورة المنقبضة الملتاعة : وهو فى كلتا ساعتيه صادق مخلص إذ يرسم ما انطبع فى خاطره من غيم وصحو واضطراب وهدوء وسعادة وحرمان ، افترجون – سامحكم الله – من الشاعر أن يسكت عن سخطه وضجره ، فلا يتكلم عن غير الرضا والامتنان ؟ ! قد تطلبون ذلك من السياسى المرن ! ولكنكم لا تجبرون عليه العاطفى المهتاج !

فتطلع الأمير إلى صاحبه وجاش بنفسه سؤال ظن أنه سيقطع على جميل منافذ القول فلا يستطيع الاسترسال ، فقال : وأنت تتعرض دائما لعواطف

الهجر والانفعال ، فلماذا لم تصور ما صوره هـــذا الدعىّ فى غزلك الملتاع ! !

فرد جميل يقول قد عنفت والله أكثر مما عنف كثيّر فقلت :

رمى الله فى عينى بثينة بالقذى وفى الغرّ من أنيابها بالقوادح

وقلت عن نفسى متمنياً ما لا يتمناه عاقل :

ألا ليتنى أعمى أصم تقودنى بثينة لا يخفى علىّ كلامها

فاهتز الأمير اهتزازة المعجب ، وقال فى ابتسام ، لقد أنشدت شعرك يا صاح ووقعت فى الشرك كما أريد ، على أنك أحسنت الدفاع عن تلميذك وراويتك ثم ضحك وقال : وأظنه أحسن إليك يوماً ما فى بعض شئونك مع صاحبتك . فبادلته المحبة الوامقة والثناء المستطاب !

فأسرع جميل يقول إن إحسانه فى هذه الناحية كثير وفير ، ولن أنسى — مهما نسيت — أنه كان يأتى والد بثينة فيجالسه ويداهنه حتى يأنس به ، ثم يروى له من شعره الرقيق لتسمع بثينة داخل المنزل فتشير بحركة مستترة أو لفظ عارض بما يهىء لى سبيل اللقاء ! ! فأنعم بما أود !

فتعجل الأمير يقول سأتعبك يا جميل وأطالبك بشاهد يسير .

فنظر الشاعر نظرة المرتاح ، ثم ضحك فى خفة وهو يقول : لا تعب فى سموك يا سيدى كما تظن ! ! بل إنى لأسعد حين أروى لك شاهداً يسيراً ، فأذكر أن بثينة سمعت إنشاد كثيّر ذات صباح ، فقذفت فى الفضاء بحجر ، وسألها أبوها ما هذا يا بثينة ، فقالت فى بديهة حصيفة : لقد رأيت كلبا يأتينا من وراء الرابية إذا نوّم الناس فرميته بحجر ثقيل !! وأشارت إلى كلب يعدو من بعيد، فعرف كثيّر أنها حددت الزمان والمكان فى موعد حبيب ، ورجع إلىّ بأهنأ نبأ واشهاه ! !

فضحك الأمير ثم قال : وهذا مثال ثان يدل على ذكاء بثينة ، أضيفة إلى ما سبق من واقعة الناقة السمراء !

فتبسم جميل ثم قال : وهو أيضا مثال رائع يدل على ذكاء كثيّر العزيز ! ! فضحك عبد العزيز ثانية وقال : ولعلك لاخلاصه وحده تحب شعره يا جميل : فود الشاعر فى أدب ، لك أن تظن ما تشاء يا سيدى الأمير ! !

ثم دخل الحاجب يدعو سيده إلى الطعام ، فدعا جميلا إلى مأدبة فتمتّع فى أدب ، فأقسم عبد العزيز أنه سعد بمجلس الشاعر سعادة يحسد عليها الأيام ، وأن جميلا لن يترك قصره بحلوان ما دام مقيما بمصر ، ففيه مقيله ومأكله ومثواه ، فخضع الشاعر للقسم الصريح ، وأقام أسابيع معدودة ممتعا برعاية الأمير وعنايته ثم ثقلت عليه العلّة فلم تُجده عناية الأمير وحذق الطبيب ، وخرج عبد العزيز باكياً يشيّع جنازة عاشق ملتاع ضاق به وادى القرى فألقى عصاه مستريحاً فى وادى النيل .

خصم عنيد

كان عبد الملك بن مروان يجلس فى ساعة من ساعات ضيقه وقلقه بقصر الخلافة متأملا مفكراً وعن يمينه عمرو بن سعيد بن العاص وعن يساره أخوه بشر بن مروان !! وكان الحديث يجرى عن سيطرة عبد الله بن الزبير على العراق والحجاز . . وكيف طاول عبد الملك وأعياه . . حتى نفذت الحيل وقل الرجاء ، فقال بشر لأخيه : يا أمير المؤمنين إن أفعال يزيد قد تركت الحجاز جمرة تشتعل ، وليس بمعقول أن تهدأ النفوس هناك فتهفو إلينا مشاعر أهل الحرمين ، وهم يعلمون أننا يوم الحرة أبحنا المدينة ثلاثة أيام بعد قتال عنيف ، فنهبت الأموال وأزهقت الأرواح ! وتكشف انتصارنا عن تهور فاضح هتكت به الحرمات ! واندلعت الأحقاد !!

وانبرى عمرو بن سعيد يقول : ولم يقف الأمر عند المدينة بل زحفت جنودنا إلى مكة فأوقعت أهلها فى حصار شديد ، وقاوم عبد الله بن الزبير جيوش الخلافة مقاومة بارعة فأحبه المكيون والمدنيون ، وحفظوا له يده البيضاء فى الذود عن الحرم وحماية البيت العتيق !!

فنظر عبد الملك إليهما ثم قال : ظلم يزيد إذا حملناه ملامة فى ذلك إذ أحرج فى أمره وسُب فى أخلاقه فارتضى الأسنة مركباً غير ذلول !!

لقد رفض المدنيون بادىء ذى بدء بيعته وجاهروه بالعصيان ، فأرسل إليهم الأموال واستقدم منهم الوفود فما نزلوا بساحته حتى غمرهم بالاعطيات الجزيلة والثراء الباهر ، وظن أن هؤلاء الذين تقبلوا نعمته سيكونون ألسنة مخلصة تهتف باسمه وتنشر أمداحه ! ولكنهم انطلقوا بالمدينة يكفرون آلاءه ويلعنون

خلافته ! ويقولون لحاه الله من صاحب لهو وشراب وحيوانات وغناء ! ! ثم يستمطرون عليه اللعنات فأضرموا الثورة فى النفوس ! ! وزعزعوا دعائم الاستقرار . . ووالله لو كنت مكانه ما صنعت غير الذى كان .

فقال بشر فى أدب يراجع أخاه : رويدك يا أمير المؤمنين ، فنحن لا نلوم يزيد أن حارب أهل المدينة حتى أذعنوا لخلافته ! ولكننا نلومه أنّ بالغ فى النقمة وأسرف فى الانتقام ، فحين قطفت جيوشه ثمار النصر تجبر قائدها الغاشم مسلم بن عقبة ! ! وأسرف فى القتل إسرافا منكراً وأباح المدينة ثلاثة أيام لمن ينهب ويسلب ويهتك ! ! وقد كان فى الإغضاء سعة ! وفى التسامح تهدئة واستتباب ! !

فقال عبد الملك معقبا : حقا إن مسلم بن عقبة قد جاوز الحد فألهب الصدور . . وما أظن يزيد قد دفعه إلى ذلك ولكن نشوة النجاح قد أعمته فتنكب عن الطريق .

فرد عمرو بن سعيد بن العاص يقول : لقد كنت يا أمير المؤمنين واليا على المدينة من قبل يزيد ، وسُيست الناس بالملاينة والاحتيال ، فغضب يزيد على ! وأوصى مسلما بالانتقام والإرهاب فهُمَا بلا شك شريكان فيما كان . . وإذا مصرع الحسين قد ألهب علينا النفوس إلهاباً نعانى من صعابه مايؤرق ويخيف فإن استباحة الحرمين الشريفين قد أمدت الضرام بضرام آخر فما ينقطع له لهيب !

فالتفت عبد الملك إلى أخيه بشر وقال فى غيظ : وقد انتهز ابن الزبير كل سانحة تحين ، فجمع حوله الناس وبنى لنفسه ملكا عجز عن إنشائه الحسين ابن على ! وهو من هو بين العرب والمسلمين ! ! فعبس بشر فى أسف وقال :

صدقت يا أمير المؤمنين فابن الزبير داهية أريب وقد حدثته نفسه بالخلافة منذ استخلفه عثمان رضى الله عنه على داره قبل مصرعه ! ! فقال فى نفسه لا بد أن أجالد عليها القوم . . وإنى لأعلم أنه ـ وحده ـ هو الذى حمل أباه الزبير على شقاق على ، كما استطاع أن يؤثر على خالته عائشة فقادها يوم الجمل إلى حرب عادتْ عليها بالخذلان . . أفـكان يعارض عليا ويخضع بعد ذلك لبنى مروان !!

فقال عبد الملك بعد تفـكير مقلق : ما أظن أحداً أدرك خوافى ابن الزبير كما أدركها معاوية بن أبى سفيان . . فقد لمس تطلعه للسيطرة ، وأدرك ما يثور فى أطوائه من ترصد وارتقاب فجاهده وأوعده ، وأوصى يزيد بالحيطة منه ! ! فياله من خليفة بصير . .

فرفع عمرو بن سعيد رأسه كمن يستأذن فى الحديث ـ فقال له عبد الملك وقد حدجه ببصر نافذ ـ أرى على شفتيك كلاما يا عمرو فماذا تريد !!

فقال عمرو فى تأدب مصطنع : أحب أن أؤكد ما قاله أمير المؤمنين ، فقد سمعت معاوية يناقش ابن الزبير بمكة فى أمر البيعة ليزيد ، وقد أطرق القوم حائرين لا ينبسون واندفع عبد الله يقول : « نخيّرك يا أمير المؤمنين بين إحدى ثلاث أيها أخذت فلك رغبة وفيها اختيار ، إن شئت فاصنع فينا ما صنعه رسول الله صلى الله عليه وسلم ، قبضهُ الله ولم يستخلف ، فدعْ هذا الأمر حتى يختار الناس لأنفسهم ، وإن شئت فاصنع ما صنع أبو بكر إذ عهد إلى رجل بعيد ، وترك من ولده ورهطه الأدنيين من كان أهلا لو أراد ، وإن شئت فاصنعْ ما صنع عمر بن الخطاب فقد صيّرها إلى ستة نفر من قريش يختارون رجلا منهم وترك ولده وأهل بيته وفيهم من لو وليها لـكان لها أهلا » فـكاف معاوية البشر واتجه بنظره إلى الحسين بن على وقال لابن الزبير « إياك أن تقع فى عوانين

عبد مناف ، أما والله لئن دفعت فى بحور بنى هاشم وأمية لتغطنك بأمواجها ثم لتوهين بك فى أجاجها » .

فيلتفت عبد الملك يسأل عمرو بن سعيد : وهل سكت ابن الزبير بعد هذا التحقير !! فالجلج عمرو قليلا ثم تشجع يقول فى اهتمام : ليته سكت يا أمير المؤمنين! لقد غلبته سلاطة لسانه فاندفع يقول برأى ومشهد من الناس : أسألكم بالله أتعلمون أن أبى حوارى رسول الله وأن أباه أبو سفيان وأن أمى أسماء بنت أبى بكر وأمه هند آكلة الأكباد ، وجدى الصديق وجده المشدوخ ببدر ورأس الكفر ، وعمتى خديجة وعمته أم جميل زوجة أبى لهب وخالتى عائشة أم المؤمنين وأنا عبد الله ! ! فبهت معاوية وانتقل بالحديث إلى غرض بعيد !!

اكتأب عبد الملك لما جاء على لسان عمرو فهو يعرف من دخيلته ما يوحى بشماتته وحقده وها هوذا ينتقص معاوية على لسان ابن الزبير ليجرح الخليفة من طرف خفى ، وكأن بشراً لاحظ ما يدور بنفس الخليفة فعجل يقول :

« لقد سمعتُ ما قلته يا عمرو . . وأزيدك أن معاوية اجتمع به ليلين قناته الصليبة فى أمر يزيد فأطرق مفكراً ولم يجب ، فقال له معاوية : مالى أراك مطرقا إطراق الأفعوان فى أصول الشجر ، فرد فى سرعة جاهدة أنا أناديك ولا أناجيك ، أخوك من صدقك القول لا من كذبك الحديث ففكّره فى الأمر قبل أن تندم يا أمير المؤمنين . . »

فقال عبد الملك يعقب على صاحبيه : إن إنساناً أتعب معاوية وأحرجه ، لابد أن يتعب عبد الملك ويضنيه ! ! ثم نظر إلى عمرو ولم يتكلم فتقابلت العينان لتفصحا عن سر كظيم ولكن بشراً يوجه الحديث إلى عبد الملك ويقول ملاطفا .

لا عليك يا أمير المؤمنين .. فسحابة ابن الزبير ستنقشع عن قريب .. ولئن انتصر معاوية على عليّ فى مكانته ورئاسته وسابقته فمثلك من يستطيع سحق ابن الزبير بجهد يسير .. فنظر عبد الملك إلى أخيه ثم قال : لقد انتصر معاوية على على لأن ابن أبى طالب — شهد الله — صريح لا يمالىء ولا يخادع أما ابن الزبير فمراوغ خداع يناديك من اليمين ويثب عليك من الشمال وفى موقفه الأخير من العراق مايعطى الدليل .

فتعجل بشر يسأل متجاهلا وماذا أتاك عن موقفه بالعراق ياأمير المؤمنين

فزفر عبد الملك كمن يتنفس قليلا عن برح كظيم وقال : لقد لمس ابن الزبير موجة الندم على مصرع الحسين تغمر النفوس فشجع المختار الثقفى على قتال ابن زياد فقذف المختار بعدته وقوته وجالد بشيعته وذويه حتى أدرك النصر وقتل صاحبنا فى عرينه ثم حمل رأسه إلى ابن الزبير بمكة واستتب له الأمر بالعراق فأصبح صاحب الكلمة الأولى وإذ ذاك تألب عليه ابن الزبير فأشاع عنه الأراجيف وملأ الجو حوله بالسموم !! حتى شك الناس فى أمره وغايته !! ولم يلبث أثناء هذه البلبلة المضطربة أن بعث إليه بمصعب أخيه فأخذه على غرة وقتله مع أكثر من معه ! ثم أعلن نفسه حاكما على الكوفة وأصبح العراق والحجاز من الآن فى حوذة الزبيريين !!

فقال بشر مغتاظا : ولماذا سكت الخليفة عن الفريقين دون أن ينتهز هذه الوقائع فيسير بها إلى ما يرضيه !!

فعجل عبد الملك بقوله : هما عدوان لدودان فلنترك أحدهما يأكل الآخر فإذا افترسه وخرج من الحومة متعبا ، توجهنا إليه بإذن الله ،! وهذا ما أفكر فيه !!

فقال عمرو بن سعيد فى تخابث ، حيا الله أمير المؤمنين ووفقه فيما يريد!! غير أنى أحاذر أن يمتد الحبل لمصعب فى الكوفة فتثبت دعائم أركانه هناك ويشد عضد أخيه بالحجاز فنصبح منهما على خطر عظيم ، وإذا كان لى بعض الرأى لدى الخليفة فإنى أرى المبادرة فى السير إلى العراق لنجالد الزبيريين ..

فنظر عبد الملك إلى عمرو كمن يستشف فى نفسه مكيدة تنسج خيوطها تحت أستار الظلام .. ثم طوى ما هجس فى نفسه من شك فى صاحبه وقال متجاهلا :

إن الخوارج لن يسكتوا عن مصعب وقد جاءتنى الأنباء أن القتال بينهم سجال !! فلنترك هذا الظافر المنتصر يصطدم بعدوه الجديد .. ولتعلمن نبأه بعد حين .

فقال بشر مندهشا : هل اختلف الخوارج مع ابن الزبير ياأمير المؤمنين ؟ لقد كان يرمض أحشائى أن أجدهم على وفاق أكيد ...

فقال عبد الملك فى صدق : يابشر ، أنت تعرف خبث ابن الزبير وقد مالأ القوم فى مبدأ أمره فأوهمهم أنه ينشد الحق الذى ينشدون .. واستمال فريقا منهم بدعوى الصلاة والزكاة والخشية من الله .. ولكن فريقا آخر قد اكتشف طويته ففضحوه بأسئلتهم المحرجة . وتكشفت الإجابة عن شقاق عنيد ..

فاسرع بشر يقول متهللا : لقد خفى عنى ما جد من أمر الخوارج مع ابن الزبير فماذا عند أمير المؤمنين .

فاعتدل الخليفة فى مجلسه ونظر الى أخيه نظرة مخلصة وقال: جاءتنى أنباء الأمس أنهم أحرجوه بالأسئلة الصريحة فسالوه عن رأيه فى أبيه الزبير وفى

عثمان وطلحة وعلى وعائشة ، فأمهلهم بعض أيام وهم لا يرضون منه بغير تكفير الجميع ... حتى إذا ضيقوا عليه سبيل الانتظار ، قال فى خداع ماكر: « إن الله أمر فى قتال الكافرين بأرأف مما تودون » ، فقال لموسى وأخيه فى فرعون : (فقولا له قولاً ليناً لعله يذكر أو يخشى) ، وقال صلى الله عليه وسلم: لا تؤذوا الأحياء بسبّ الأموات ، فنهى عن سب أبى جهل من أجل عكرمة ابنه ، وأبو جهل عدو الله وعدو رسوله الأمين، وقد كان يغنيكم عن هذا القول الذى سميتم فيه طلحة والزبير أن تقولوا أتبرأ من الظالمين ، فإن كانا منهم دخلا فى غمار الناس ، وإن لم يكونا منهم لم تحفظونى بسبب أبى ، وهذا الذى دعوتم إليه أمر له ما بعده ، وليس يقنعكم إلا التصريح ولن أرضى به » فتفرق عنه القوم ناقمين ، وحاربهم مصعب فباء منهم بشر مستطير !

فقال بشر فى فرح : الحمد لله ، لم ينفع ابن الزبير احتياله الدقيق فارتطم بطود مكين ! ! فقال عبد الملك ، معقباً على أخيه وسأنهيأ بجند الشام ، للخروج إليه فى مأزقه فيقع بين أسدين كاسرين وأغنم الفوز عن قريب .. ثم رفع عينيه إلى عمرو ، وقال فى تطلع كن معنا يا ابن سعيد ! ! فأنت منا ونحن منك ! !

فاضطرب عمرو كمن أحس سهماً يتوجه إليه ، وقال فى حيرة أنا فداء أمير المؤمنين .. وأدرك بشر ما يجول فى خاطريهما عن فراسة صادقة ! ! فاستأذن من أخيه كى ينهض مع عمرو فى جولة بالغوطة بعد أن تشعب الحديث .

وقام الرجلان فودعهما أمير المؤمنين .

— ٢ —

توجه عبد الملك بعد أيام بكتائبه العديدة إلى العراق ، ولم يتجاوز أرباض

عاصمته حتى جاءه النبأ بثورة عمرو بن سعيد عليه فى دمشق ، واغتصابه إمارة المؤمنين واحتلاله قصر الإمارة فَدَعَا بشرا أخاه ، وقال له فى أسف حائر ، لقد قرأت والله ما بنفس هذا الآثم المجترىء ليلة اجتمعنا معاً بدار الخلافة ، نتناقش فى أمر ابن الزبير ولمحت فى تخاوص عينيه دليل الغدر والخيانة ، وأفهمته حينئذ عن طريق التلميح ما وقع فى نفسى منه !

فقال بشر وقد أدركت ذلك يا أمير المؤمنين ، فعجلت بالانصراف معه إلى الغوطة وأخذت أتصرف معه فى شجون من القول لأستديم ولاءه فما انصاع إلى قبول ، وإنى أطمع أن يوفدنى أمير المؤمنين الآن ، فأعرض عليه — خديعة واحتيالا — ولاية العهد فأستميل خاطره ثم أرى ما يتكشف عنه عناده الغدور فقال عبد الملك فى انقباض متجهم . . عليك به إن شئت فأبلغه ما تريد .

تابع الجيش الشامى سيره إلى الكوفة يقوده عبد الملك مبديا من البسالة والصبر ما بعث فى نفوس قومه كثيراً من التفاؤل والإقدام ، وقد التزم سياسة التواضع والرفق ، فكان يسأل كل جندى من رجاله عن مأمله ومبتغاه وتبسط فى الحديث مع السوقة حتى ضمن إخلاصهم ووفاءهم ! ! ولم يشأ أن يشنّ الحرب فجأة على مصعب ، فتتلاحم قوتان متكافئتان ، إحداهما غريبة نائية لا تعرف منعرجات الطريق وملتمسات النجاة ، والأخرى قريبة تملك من المعرفة والدربة ما تحوز به التفوق والانتصار ، بل لجأ إلى الحيلة والدهاء . . فبعث بعيونه إلى أجناد مصعب يستوضحون أمره . ويكتشفون غوامضه ، وأتوا إليه يعلنون ما شاهدوه فى نفوس الجند من التذمر والغضب ، فالأمير الزبيرى كأخيه عبد الله شحيح بخيل لا يجود عليهم بغير ما يمسك الرمق من الكفاف الضئيل ، وقد سئموا معاناة التقشف ومكابدة الحرمان !

فأخذ عبد الملك يفكر فى الأمر تفكير المنتهز الماهر ، واستعرض ما حمله

من أوساق الذهب وأحمال الفضة ، فرأى شيئاً كثيراً يبهر العيون ويجذب الأحداق ، فبعث بكتبه إلى قادة كتائب مصعب وإخوانه !! وجعل يمنى كل قائد بالولاية ويغريه بالذهب ، حتى انجذبت إليه النفوس عن رغبة واحتفال .. وجاءت إليه ردود القوم تعلن ولاءها الخالص وانضمامها إلى جيش الشام حين تأزف الساعة المنتظرة ، ولم يشذ عن القواد غير إبراهيم بن الأشتر ، وقد آثر الوفاء على الغدر ولم يأخذ مقلته بريق النضار أو تمل بنفسه أحلام الإمارة .. فعرض كتاب عبد الملك على مصعب وأخبره خبر زملائه من القواد، ثم اقترح عليه أن يبيدهم بسيفه كيلا يفسدوا الجيش إذا دارت الرحى وحمى الوطيس ، ولكن مصعبا خاف العاقبة وتريث فى الأمر حتى يهتدى إلى السبيل، ولم تلبث أن فاجأته جيوش عبد الملك فتزعم الجند وأبدى من ضروب البسالة والحمية ما أكبره به أعداؤه ومبغضوه !! ولكن الخيانة تقطع برؤوسها ، وشعاع المال يجذب إليه قلوب ذوى المطامع فخذله أعوانه فى موقفه الحاسم ومأزقه الكريه !! ونظر فإذا القلة القليلة من ورائه والكثرة الكاثرة إلبٌ عليه مع خصومه .. فغامر بروحه ونال الشهادة كريماً مهيباً لم تُخفض له رأس ، أو يلحقه هوان .. ثم دخل عبد الملك الكوفة ، وقد ضم العراق إلى خلافته فبايعه أهلها طائعين راغبين فخطبهم مبتهجا بما نال ، وأرهبَ ورغَّب وبشّر وأنْذَر ، ثم رجع مسروراً إلى دمشق .. وقد أسند إلى الحجاج بن يوسف الثقفى أمر ابن الزبير بالحجاز آملا أن تحين نهايته عن قريب !!

وطارت الأنباء إلى عبد الله بمكة فلاعه مصرع أخيه لوعة أليمة ، وأراد أن يعلن النبأ الفاجع إلى معشره ، فصعد إلى المنبر ليقول بعد أن حمد الله ألا إن خبراً من العراق أتانا فأحزننا وأفرحنا ، فأما الذى أحزننا فإن لفراق الحميم لذعة يجدها حميمه ثم يرعوى ، ذوو الألباب إلى الصبر وكريم الأجر ، وأما

الذى أفرحنا فإن قتلَ مصعب له شهادة ، ولنا ذخيرة ، أسلمه الطغام الصمّ الآذان أهل العراق وباعوه بأقل الأثمان ، فإن يقتلْ فقد قتل أخوه وأبوه وابن عمه وكانوا الخيار الصالحين !! أما والله لا نموت حتفاً كما يموت بنو مران ولكن قعصاً بالرماح وموتاً تحت ظلال السيوف !! ثم نزل ليأخذ أهبته لقتال باسل ، وكفاح مرير !

وفى يوم عابس رهيب تتدفق جيوش الحجاج من الشام والعراق على جبل أبى قبيس بمكة ، ثم تنصب على هضابه المجانيق لترمى الكعبة بالنيران المشتعلة فتهوى عليها بالصواعق والقذائف ، فإذا ارتجف الجنود قليلا لمهاجمة بيت الله صرخ فيهم الحجاج متوعّدا وتقدم بنفسه فواصل القذائف غير هياب ! فتعطلت مشاعر الحج، وأخذت كتائب الغزاة تُغير على المسالك والدروب فتقتل الشيوخ والأطفال والنساء !! وأقبل أهل مكة خائفين فزعين يطلبون الأمان من الطاغية ، وقد أرهقهم الجوع والعطش واللهب بعد حصار ظالم عنيد .. ويتحقق عبد الله من نهايته فيفد إلى أمه ذات النطاقين ، ويقول فى أسف دامع : يا أماه خذلنى الناس حتى ولدى وأهلى ولم يبق معى إلا اليسير ومن ليس عنده أكثر من صبر ساعة والقوم يعطوننى ما أردت من الدنيا !!

فتقول أسماء فى صرامة متماسكة أنت أعلم يا بنى بنفسك فإن كنت على حق ، فأمض له فقد قتل عليه أصحابك ، ولا تمكّن من رقبتك ليلعب بها غلمان بنى أمية وإن كنت إنما أردت الدنيا فبئس العبد أنت !! فيصيح ابن الزبير ، والله ما أردت غير رضوان الله ثم يخرج إلى القتال ، وقد عزم على الموت ليصبح استشهاده الفاجع خاتمة المأساة !!

ويبحث الحجاج عن فارس نجدىّ ، يعرف عنه الوثب السريع ليحمل النبأ السار إلى عبد الملك بدمشق فيقابله الخليفة فيخبره الحديث ، فيسر عبد الملك

ويثنى على الحجاج ثناء المحب الفخور ، ثم يسأل فى تشفٍّ ناقم عن نهاية ابن الزبير فيُجيب الرسول: لقد أبدى مع ضعف عدته وقلة عدده جلداً صابرا وبأساً عظيما ، لقد ملك عليه الحجاج أبواب المسجد الحرام وحاصره به فأخذ ليلته يصلى ويتهجد ، ثم أغفى قليلا حتى أذن الفجر ، فنهض للصلاة وفرغ منها ليستعد للنزال ، ويقول للبقية الضئيلة ممن معه « يا آل الزبير لو طبتم لى نفساً عن نفوسكم كنا أهل بيت عظيم فى العرب ، أما بعد فلا يرعكم وقع السيوف ، غضوا الأبصار عن البارقة ، ولا يلهينكم السؤال عنى فلا يقولن أحدكم أين عبد الله ألا من كان سائلا عنى فإنى فى الرعيل الأول ، احملوا على بركة الله ياله من نصر لو كان له رجال ! » .

فنظر عبد الملك إلى رسول الحجاج — وقد لمح تأثير حديثه فى النفوس — وقال فى عجب ! مهلا يا فتى نجد ، فلقد كدت تجذب إلى ابن الزبير أعناق بنى قومنا فى الشام !! إنى لأعرفه صبوراً جباراً ، ولكنه رام التى لا يرومها من الناس إلا كل حر معمم، ثم تعلو وجهه ابتسامة المرتاح فيقبل عليه الملأ مهنئين

جبهـــة عالية

دخل روح بن زنباع على أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان متهللا ضاحكا ، وقال فى ابتسام مرح : هنيئاً لك يا أمير المؤمنين ، فقد خذل الله على يديك عدوك اللئيم عمرو بن سعيد العاص وبلغك فيه ما تريد !

فقال جليس يتملق عبد الملك ويُجاريه : ومن عمرُو بن سعيد ؟ لقد نصر الله أمير المؤمنين على آل الزبير بمكة ، وشيعة بنى هاشم بالعراق، وملحدة الخوارج بالجزيرة ، وعاهل الروم بالمصيصة ! ! فمن يكون عمرو مع هؤلاء ؟

فأطرق روح ، وأخذ مكانه بين الجالسين ولم يشأ أن يفوه بجديد !

ولكن عبد الملك يرفع رأسه فى اتزان ويقول فى وقار هادىء : لقد كان مصرع عمرو بن سعيد مأساة كشفت معادن الناس فصرت أشك فى كثير ممن يداهنون بالحديث .

فنظر القوم بعضهم إلى بعض حائرين ، وقد خاف كل سامع على نفسه ، فربما عناه الخليفة بما يسوق من تعريض ، وعبد الملك داهية حصيف يلفظ الكلمة العابرة فتهدف إلى مرمى بعيد ! !

ولكن روح بن زنباع يستجمع شجاعته،ويطمئن إلى ثقة الخليفة به، فيقول فى ثبات حازم : أفصحْ يا مولاى عما تريد ! ! أى مأساة تكشفت لك فى مصرع خائن عنيد ؟

فاعتدل الخليفة فى مجلسه وتطلّع إليه القوم فى حذر صامت ، وقد أرهفوا آذانهم إلى كل حرف يقوله الخليفة ، وانبرى عبد الملك يقول :

لقد جاءنى عمرو بن سعيد حين استدعيته فى أربعة آلاف رجل من أعوانه ،

معهم سلاحهم الراعب ، ولديهم عدتهم الواقية ، فأخذوا يطوفون بقصرى فى ضجيج مُزْبد حتى خاف أخى عبد العزيز علىّ ، ورجانى أن أصرف الرجل إلى معسكره حذرا من العاقبة المتوقعة ، ولكنّى قامرت بقتله غدراً ، ورميتُ برأسه إلى ذويه ، تسيلُ دماً من فوق الأسوار ، ثم طَرحتُ معها آلاف الدنانير والدراهم فتشاغل القوم بجمع المال، وطار كل مأجور بما حمل، وبقيت رأس عمرو فى الطريق ! !

فردّ روح فى دهاء : هؤلاء رعاعٌ أوغاد ، لم يكونوُا يضمرون الحب لعمرو، وقد استهواهم بالمال وحدَه ، فحين أتى إليهم من غير طريقه خذلوه !! أما نحن يا أمير المؤمنين فنعطيك عن هوى خالص ، ونبذل أرواحنا فى سبيلك طائعين وقد جرّبتنا فيما سلف من المـآزق ، فعرفتَ من نكون ؟ فلا تظن الناس جميعاً بمنزلة سواء !

وقال متملق آخر : إن الفرق بيننا وبين جنود عمرو ، كالفرق بين عزة أمير المؤمنين وذلة غريمه ! فكيف تقيس فريقاً بفريق ! !

فابتسم الخليفة الداهية ، ونظر إلى المتكلم نظرة معبرة ، وكأنه يقول فى تخابث : إخدع غيرى فأنا أعرف طبائع العالمين !

ودخل الوليد بن عبد الملك فنهض الحاضرون إجلالا لمقدمه ، وانحنوا برؤوسهم إلى الأرض مبجلين معظمين ، فصافحهم فى عزة ، ثم تقدّم فى رزانة هادئة إلى أبيه الجالس على كرسيه يتألق وجهه بالابتسام ، فمد يده إلى يده ثم لثمها ثلاث مرات فى أدب حريص ، والتفت إلى الملأ الواقفين فدعاهم إلى الجلوس ، شاكراً لهم استقبالهم الكريم . . . ثم أعطى الخليفة خطاباً قدم به سفير الروم منذ لحظات ! واستأذن فى الخروج فأذن له أبوه ، والقوم صامتون

يتصفحون وجه عبد الملك ، إذ يقلو الرسالة ثم لا يفوهون بشيء كما اعتادوا ، فقد يكون الأمر من أسرار أمير المؤمنين .

ومضت لحظات فرغ فيها الخليفة من أمره ، فطوى الرسالة ، ووضعها فى جيبه ، والتفت إلى القوم يستمع إلى الحديث .

فقال قائل من الحاضرين ! إن فى ملامح أميرنا الوليد مشابه من أبيه ، ولا أرى الأمة العربيـة قد أجمعت على شيء كما أجمعت على محبته وإجـلاله ، فبارك الله لك فيه يا سيدى العظيم . . ! !

فانتهز روح بن زنباع هذه المقدمة السارة ، ووجه الحديث إلى ما يعرف فيه سرور عبد الملك فقال : وسيكون عهده الزاهر بعـد أن يبلغ أمير المؤمنين ما يشتهى من عمره المديد ، مجال سعادة للعرب ورفعة للمسلمين ، فليجهر خليفة الله ببيعته فى الأمصار دون انتظار ، فإن ولاية العهد شاغرة منذ انتقل إلى رحمة الله سيدنا عبد العزيز شقيق أمير المؤمنين .

فأطرق عبد الملك إطراقة المفـكر ، ثم قال فى تمايل : كنت أود أن أرحم الوليد من مآزق الحـكم ، ومرهقات السلطان ، وأراكم تحاولون أن تخوضوا به فيما أكابد من لجج غواش ، وعواصف قاصفات ! !

فردّ روح بن زنباع في صرامة : هوّلها يا أمير المؤمنين ، فالولد سرّ أبيه ، وسينعم إن شاء الله بجلال الخلافة الرائع ، ويهنأ بسعادة الاستقرار المـكين .

فنظر عبد الملك فى وجوه القوم ، وقال فى هدوء : جلالُ الخلافة الرائع ، وسعادة الاستقرار المـكين ! !

. . . أواه . . ليستْ للخلافة سعادة يا قوم ، ها أنذا أحارب الأهوال فى ميادينها المترامية ، ولا أسكّن فتنة العراق حتى يشغب علىّ الخوارج ، ولا أكاد

أستأصل الزبيريين حتى ينعق على أباطرة الروم !! وكل يوم خبر فادح يستنزف الجهد ، ويفرى الصم الصلاب ، فأين السعادة التى تظنون ! !

قال قبيصة بن ذؤيب ـ وكان فى الحاضرين: أنت أسَدٌ يامولاى ، والآساد للشدائد والأزمات ! ! والوليدُ مثلك ، وسيحمى عرين أبيه ! !

فابتسم عبد الملك ابتسامة أشرق بها محياه ، ورأى القوم ما فى وجهه من السرور ، فأسهبوا فى الثناء على الوليد ، وقضوا الوقت فى سمر لذيذ ، حتى إذا حانت ساعة الانصراف أخذوا يستأذنون فى الخروج ، وينصرفون ، مثنى وفرادى ، وقد استبقى الخليفة روح بن زنباع لديه ، فعلم مَن بقى من القوم أنه يريد الخلوة به ، فنهضوا مسرعين ! !

قال عبد الملك فى همس : لقد اطمأنّ قلبى يا روح إلى ما عرضت من أمر البيعة ، ولكنى أريد أن تكون طريق الوليد ممهدة معبدة ، فلا يصطدم بالأشواك والصخور !

فأجاب روح فى إهتمام : أيةُ صخور وأشواك تظن ؟ إن جميع أرجاء الخلافة فى حوزتك ، ولئن طرفت عينٌ واحدة تريد الانتقاض ، فلا بد أن ينطفىء نورها دون أن تبصر ما تريد ! !

فقال الخليفة فى تعقل : لا نزاع فى أن الدولة الآن تحت يدى ، وجميع من بها فى قبضتى اتجه بهم حيث أريد ، ولكن السماء تكون صافية زرقاء ثم ينتشر الغمام فجأة فتجلجل الرعود وتلمع البروق ثم تنهمر السيول ... ولا بد من عمل حاسم نجمع به الناس قلوباً وضمائر ، لا رءوساً وألسنةً على طاعة الوليد ! ثم سكت الخليفة ... وأطرق روح إلى الأرض يفكر فيما يسمع ، ويبحث عن رأى مصيب ، ولكن عبد الملك يقطع عليه تفكيره حين يسأله قائلا : أتعرف سعيد بن المسيب يا بن زنباع ؟

فيتنبهَّ روح ويجيب مسرعاً : ومَن لا يعرف فقيه المدينة ، ووارث علم الصحابة ، وسيد التابعين ! ! فيقول عبد الملك : كيف علمُك بحب الناس له وتقديرهم إياه ؟

فيرد روح فى حماسة : لا أعرف بين العرب إنساناً يملك قلوب بنى الإسلام كما يملكها سعيد ، ووالله لقد شهدت من طاعة المسلمين له ، وإقبالهم عليه ، ما لو أمر أحدهم بأن يرقى إلى قمة جبل ، ثم يرمى بنفسه إلى السفح لتهالك الناس على ذلك ، وكأنهم يسرعون إلى جنات ناضرة تجرى من تحتها الأنهار ! !

فنظر عبد الملك إلى جليسه ثم قال : هذا هو السلطان يا روح ، إنه سلطان مشاعر وقلوب ، لا سلطان رماح وسيوف ! ! فمن لى بمثل ذلك للوليد ؟ . . . لقد فكرتُ — وهذا سرّ بينى وبينك — أن أخطب إلى الوليد ابنة سعيد ، فإذا أصبح زوجها المختار ، وانتقلت إلى بيت الخلافة بدمشق ، وشاع بين العرب أن الوليد قد ضمن حبّ سعيد ، فستخضع له القلوب الأبية ، وتتسع له الصدور المنقبضة ، ويصبح — عن حق — أمير الدولة وسيد المسلمين .

فقال روح — وقد استشف بنظرته سريرة أمير المؤمنين ، ورأى الأجدر أن يطيعه ويزكّى رأيه — : وما يمنعك من ذلك يامولاى ؟ وهذه أجمل بشارة يمكن أن تزف إلى سعيد ! !

فقال عبد الملك مستفهماً فى دهاء : ومن يزفها إليه يا صاح ؟ فأسرع روح يجيب : إذا أحرزتُ ثقة أمير المؤمنين ، فإنى أعجل بالرحيل إلى المدينة فأقوم بما تريد !

فهمس عبد الملك يسرّ إلى صاحبه — وليس معهما أحد ، ولكن ليعطيه صورة قوية عن حذره وحيطته — سرْ على بركة الله ، ولا تبطئْ فى المدينة

لغير حاجة ، فأنا فى عجلة تتطلب حضورك السريع ، ثم وقف الخليفة ناهضاً ... فأدرك روح أن موعد انصرافه قد حان ، فتلمس طريقـــه إلى الباب فى تأدب حريص .

— ٢ —

شاهد وجوه المدينة روح بن زنباع يسأل عن مجلس سعيد بن المسيب ، فيعلم أنه بمسجد رسول الله ، فيسرع إلى لقائه فى لهفة ، ويراه ناهضاً يتلو القرآن فى صلاته بين يدى ربه ، فينتظر متمهلا حتى يفرغ من شأنه ، ثم يتقدم إلى يده فيلثمها متفائلا متبركا ، ويقول فى أدب خاشع :

أنا رسول أمير المؤمنين ؟

فيرد سعيد فى تؤدة : وماذا يريد أمير المؤمنين ؟

فيبتسم روح إبتسامة ذات دلالة سارة ثم يقول : جئتك منه بخبر جزيل .

فيردّ سعيد دون أن يمهله : الخير من الله وحده لا من مخلوق ضعيف !!

فيضطرب روح لما يسمع ثم يتدارك ثباته فيقول : إن أمير المؤمنين أيّده الله يقدّر منزلتك العالية فى المسلمين ، وقد رأى أن تكون ابنتك الطاهرة زوجة صالحة لابنه وولى عهده الوليد ، وقد بعثنى بشيراً إليك فبأى شىء تجيب ؟

فيقول سعيد — وهو يهز رأسه — ما شاء الله !! عبد الملك يريد أن يصهر إلى !! انتظر يا بنى إلى الغد ، حتى آتى الفتاة فأسمع منها الرأى فهى صاحبته الأولى دون شريك !! فيقول روح فى أدب : ومتى أسعـــد بلقائك الكريم ؟

فيرد سعيد فى ثقة : غدا فى مثل هذا الوقت بمسجد رسول الله !!

فيسأذن روح مترقبا ما يأتى به الصباح القريب .

وخلا سعيد إلى تفكيره فأخذ يتأمل فيما حزبه من الطارىء الجديد ، ثم قال هامساً وكأنه يجود من نفسه رجلا يبادله الحديث: إن عبد الملك يريد أن يتخذ منى ستاراً يحجب عن الناس جبروته البغيض ، ويسكتُ الألسنة إذا خاضت فى شأن الوليد ، وإن هذه الأسرة من بنى أمية ما انفكت ترمى الناس بكل داهية ينتهز الفرصة ، فيبنى مجده الخاص على نثار الجماجم المتطايرة ، والأشلاء المبعثرة ، والدماء المراقة ، ولن يكون الوليد أعدل من أبيه ، كما لم يكن عبد الملك أعدل من مروان !! وقد ابتلانا الله به واليا طاغياً فى المدينة ، ثم خليفة جباراً فى دمشق ، أفيكون ابن المسيب ستاراً يخفى المظالم، ولسانا يدعو إلى البغى والشقاق : ألا خاب سعيد وخابت بنت سعيد إذا كانا مطيتين سريعتين إلى طريق الضلال ، لن أبلغ بالرجل ما يريد مهما تخابث واحتال ...

ونظر سعيد فيمن حوله فرأى تلميذه الفقير الواهن عبد الله بن وداعة يتقدم إليه ، فسأله أين كنت يا عبد الله ؟ لقد تلمستك من ثلاثة أيام ، فلم أعرف عنك شيئاً يا صاح ؟

فقال التلميذ فى انكسار : لقد ماتت زوجتى منذ يومين بعد مرض طويل .

فرد سعيد : إنا لله وإنا إليه راجعون ! ألا أعلمتنا بمرضها فنعودها ، أو بموتها فنشهد جنازتها !!

فقال عبد الله : لقد استحييت أن أتعبك يا سيدى الكريم .

فنظر إليه سعيد متسائلا : ألك رغبة فى الاقتران بغيرها يا عبد الله ؟

فأجاب فى ذلة ضارعة : يرحمك الله يا سيدى ، من يزوّجنى وأنا طالب علم فقير لا أملك غير قوت اليوم !

فأشرق وجه سعيد وقال : أنا أزوّجك ابنتي الليلة . وأكون مرتاح النفس إذ أزفها إلى طالب علم يحفظ القرآن، ويروى حديث رسول الله ويتجنب المحارم ويحذر الشبهات !

فبهت ابن وداعة ولم يجب ! ! فقال سعيد : أترفضها يا عبد الله ؟

فأكبّ الطالب على قدميه يلثمهما فى ذلة ويقول : عفوك يا سيدى أين أنا من مقامك الجليل ؟

فقال سعيد فى حزم : قم فادعُ نفراً من الأنصار ، فأشهدْهم على الزواج ، فتلكأ ابن وداعة مستحيياً متحيراً ، ورأى سعيد ذلك فى وجهه ، فصفق بيديه ، فحضر رهط من تلاميذه فأشهدهم على ما كان ، وأصبحت الفتاة زوجة طالب العلم الفقير ، وفى المساء صحبها والدها إلى منزل الزوج ، ومعها الخادم والدراهم والدقيق وبات ليلته مسروراً، وقد ردّ عمليا على خطبة أمير المؤمنين.

— ٣ —

أشرق الصباح ، وقدم روح بن زنباع إلى المسجد ، فسمع الناس يتحدثون عن زواج ابنة سعيد ، فأخذ يضرب كفاً على كف ، ولم يشأ أن يقابل الفقيه الورع بعد ما صنع ، فقد انتهى الأمر على غير ما يريد . . . فركب راحلته واستأنف المسير إلى دمشق ، وفى نفسه ثورة عارمة على هذا المترفع المتشامخ الذى آثر طالباً فقيراً قميئاً بما رغب فيه ولى العهد ، وسعى إلى تحقيقه أمير المؤمنين . . . وكان لقاء شاحبٌ مبتئسٌ فى قصر الخلافة بين الرسول والمرسل ، فقد ألم عبد الملك بما كان ، وعضّ على يديه غيظا أن عرض نفسه لإهانة قاسية ، لم يكن يتوقعها من أحد ، وطلب إلى روح أن يكتم الأمر ما استطاع ، فلا تقف عليه أذُنٌ فى دمشق ، ثم قال فى مرارة كظيمة : وهبنى ضمنت لسان روح ! فمن يضمن لى لسان سعيد ؟ !

ودارت الأيام ، وأمير المؤمنين يفكر تفكيراً دائباً فى الدعوة السريعة إلى مبايعة الوليد ، فى جميع الأمصار الإسلامية بالعهد من بعده ، وقد بادر إلى تنفيذ ذلك متخذاً وسائله السريعة ، فتمت البيعة فى جميع العواصم العربية دون المدينة ... فقد تربّث عبد الملك أن يفاجىء حرم رسول الله بما يريد ! إذ أن سعيداً سيعلن رأيه بما لا يحب ، فيجذب إليه سواد الناس ، وتكون فتنة عارمة يتصدع بها ثبات الوليد ! وقد عقد الخليفة لذلك مجلساً من خاصته وذوى سره ! وطرح الموضوع على بساط المناقشة ليصل إلى حل مفيد ! ! قال قائل من الحاضرين : وهب أن سعيداً تخلف عن البيعة يا أمير المؤمنين ، فماذا يصنع فرد واحد بين الملايين ! !

فردّ عبد الملك : لو تخلف عن البيعة مئات من رجال السياسة وذوى العصبية ، ما أهمنى ذلك فى شىء ! ! إذ أن جميع الناس سيدركون أنه خلاف شخصى لا صلة له بالشريعة الإسلامية !! ولكن تخلّف سعيد وهو رأس العلماء فى عصره مدعاة إلى لجاج كثير .

فقال قائل ثان : لقد بايع عشرات الفقهاء فى كل حاضرة من حواضر الإسلام ، فإذا اتفق هؤلاء جميعاً — وهم حماة الشريعة ودعاة الملة — على البيعة للوليد ، أفيؤثر علينا تخلف سعيد ! !

فأجاب أمير المؤمنين فى صرامة حاسمة : ياقوم ، سعيد عالم مدينة رسول الله ، وإمام أهل الملة بالحجاز ، وأثره الدينى والروحى لا يتعلق به متعلق ، فاتركوا بربكم هذا القياس ! !

فقال قائل ثالث : لنأخذ رأيه أولا على انفراد فعساه يلين ! !

فقال عبد الملك فى أسف : هيهات ... لقد حاولت ذلك مرات ، فوقفت على مالا أتحمل ! وتلك ثغرة أحاذر أن تتسع ذات الشمال وذات اليمين !

فأطرق القوم ساهمين ، ولاحظ أمير المؤمنين ما يرين عليهم من القنوط ، فقال فى حدة : لابد من الحزم السريع ، لن أدعوه إلى المبايعة كغيره من الناس ، بل أشير عليه بالسكوت إذا تلا القارىء كتاب البيعة فى المسجد الشريف ، فإذا لم يشأ ذلك ، فليلتزم منزله يومئذ فلا يفد إلى المسجد حتى ينتهى الأمر فإذا أصر على ملازمة المسجد ، فلينتقل من مكانه المعتاد إلى ناحية أخرى ، فيأتى الرسول إليه فلا يراه وفى ذلك كله تهوين عليه وتجنب للخلاف !!

فقال قائل مريب : وإذا ركب رأسه وأراد التفنيد فماذا تصنعون ؟

فصاح الخليفة مغتاظا : آخر الدواء الكى ، ولا بد مما سيكون .

فأمن القوم على ذلك ، وانفرط العقد إذ بادروا بالخروج بعد قرار حاسم فى أمر سعيد .

— ٤ —

وجاءت رسل البيعة إلى يثرب ، فتقدم هشام بن إسماعيل والى المدينة إلى سعيد يعرض عليه ما اقترحه أمير المؤمنين فى شأنه ، وقال له فى استعطاف : لقد قبل الخليفة أن يقرأ الكتاب بالمسجد فلا تتكلم بلا أو نعم !

فقال سعيد محتداً : سيقول الناس بايع ابن المسيب إذ صمت !!

فقال هشام : لقد قبل الخليفة أن تجلس فى بيتك حينئذ فلا تشارك المجتمعين بالمسجد .

فأجاب سعيد فى استخفاف : ما أنا بفاعل ، كيف أسمع المؤذن يقول : حى على الصلاة ، ثم لا أبادر بالذهاب !

فكتم هشام غيظه المنفعل فى حدة ثم قال : لقد قبل الخليفة أن تنتقل من مجلسك إلى غيره ، فإذا جاء الرسول فلم يجدك أمسك عنك !!

فقال سعيد فى سخرية : ما أنا بفاعل ، أخوفا من مخلوق احتال على التهاون والإغضاء ! ! فانصرف الوالى يائساً يفكر فى الخطوة الأخيرة وإنها لذات عقابيل . . ! وكان ما لابد أن يكون . . فقد حانت الساعة الحاسمة ، وارتفع الصوت المؤمن بالمعارضة ، فسيق الشيخ الواهن إلى العذاب ، وضرب بالسياط ضربا مبرحا ، وصب الماء البارد على جسده النحيل حتى أغمى عليه ، ثم حبسوه !

وطارت الأنباء إلى مجلس عبد الملك وقد تحلّق حوله ذوو مودته فتعجب تعجباً شديداً من صلابة سعيد وعناده ، وتزلف إليه مستمع مداهن ، فسأل أمير المؤمنين فى تعجب : لماذا لم يبايع هذا الشيخ الخرف سيدنا الوليد ، وليس بدمشق غيره من أولى النبالة والورع والجهاد . .

فأجاب مستمع آخر ينافس سابقه فى الملق الرخيص : إن سعيداً يرفض البيعة لسيدنا الوليد ، وأمير المؤمنين على قيد الحياة ، ولو كانت البيعة بعد أمد مديد إن شاء الله لأجاب ثم أجاب . .

فنظر عبد الملك إلى القوم وقال فى أسف : علام نخدع أنفسنا فى سعيد ؟ إن الرجل يعتقد أن خلافة بنى أمية ذات الارث المتتابع لا تتجه وجهة الاسلام ! ! وهو على اعتقاده حريص ، ففيم الجدال ؟

وأحس الرجلان بالخجل فانصرفا ... وخرج القوم وراءهما متتابعين .

جبار يتصاغر

كان الوليد بن عبد الملك مبتهجا فى مجلسه لسعادة أصابته فى أمسه ويومه، فأخذ يتفكه مع جلسائه فى مرح سافر ، والبشر يكسو الوجوه فتنم عن ألق وضيء ، ثم خطر ذكر الحجاج بن يوسف الثقفى فساد الصمت فجأة ، وغمرت النفوس كآبة تعجّب لها الوليد ، فسأل أصحابه متضاحكا : كيف تبدلت بكم الحال عند ذكر الحجاج !! فقال والى المدينة عمر بن عبد العزيز ، وكان فى الحاضرين — يا أمير المؤمنين ، لا يخطر الحجاج فى سرور إلا أفسده ، ولو شاهدتَ وجوه الناس وما يصبغها من العبوس إذا تداولوا سيرته خارج قصرك ، لوقفت على شر أليم . .

فابتسم الوليد ابتسامة معبرة وقال : أعلم أن سياستكما مختلفتان ، وكم كتب إلىّ الحجاج يشكوك .

فنظر عمر بن عبد العزيز متعجباً وقال : ياسبحان الله ، أوَ يشكونى الحجاج إلى أمير المؤمنين ، فأجاب الخليفة فى ابتسام : يقول أنك أفسدت عليه ملأه فى العراق ، فما يشغب شاغب بالكوفة أو البصرة ، إلا رحل إليك هاربا منه فآويته وحميته ، وجعلت حرم رسول الله ملجأ للطرداء والمذنبين ! !

فقال عمر معقباً : أصدقك الحديث يا أمير المؤمنين ، إذ أعلن إليك أن إغضاب الحجاج قربة عظيمة أتزلف بها إلى السماء ! ! فضحك الوليد ضحكة عالية وقال فى تفكه : أوَ بَلغَ بك امتهانه إلى هذا القدر ، إنّ والدى رحمه الله أوصانى به خير وصية ، وقال أنه جُنة بنى مروان !

فردّ عمر متعجباً : لا حول ولا قوة إلا بالله ، أيكون هذا الطاغية السفاح جنة بنى مروان ، وليس فى يده غير العراق ، فهل كان جُنّتهم أيضاً فى الشام والحجاز ومصر وأفريقية . وخراسان ! !

فنظر الوليد إلى جلسائه وسأل ماذا ترون ؟ فصاح صائحهم فى مداهنة : القول ما قال أمير المؤمنين ! فتنحنح الوليد قليلا ثم قال : إن أمير المؤمنين عبد الملك رحمه الله حين أعياه أمر العراق ، جمع أنصاره وخلصاءه ، ثم خطبهم بقوله : « أيها الناس إن العراق كدر ماؤها ، وكثر غوغاؤها ، واملولح عذبها ، وعظم خطبها ، فهل من ممهد لها بسيف قاطع ، وذهن جامع ، وقلب ذكى ، وأنف حمى ، فسكت القوم ، ولم يتقدم غير الحجاج ، فجمع الله به الشمل ووحد الكلمة ، وأكد وفاءه الجم لأمير المؤمنين ... » .

فقال عمر معترضاً : لو كان الحجاج ذا وفاء كما يظن أمير المؤمنين لظهر ولاؤه لسيده وولى نعمته روح بن زنباع ، وزير أمير المؤمنين عبد الملك رحمه الله .

فسأله الخليفة فى دهشة : أوخان الحجاج روح بن زنباع وقد قدّمه وزكاه ! ؟

فأجابه عمر : لقد اختاره روح أمير للعسكر ، فأصبح رجل الجند المطاع ، وقائد الكتيبة المرهوب ، وقد مرّ ليلة بمعسكر روح وهم يتناولون الطعام فأجبرهم على الرحيل فامتنعوا حتى يأكلوا ما بأيديهم ، فأحرق عليهم خيامهم بالنار ، وتركهم شُرّداً أباديد ! ! وبلغ ذلك روحاً ، فشكاه إلى عبد الملك فما أنصفه وأقر صنع الحجاج .

فرد الخليفة يقول : لولا أن الحجاج كان على حق ، ما أيده أمير المؤمنين رحمه الله فانقطع الحديث بعمر ، ولم يدر كيف يجيب ! ! ثم أخذ الوليد يتأمل وجوه الحاضرين وسأل مداعباً : ما تقولون أنتم فى الحجاج ؟ احكموا بينى وبين عمر بن عبد العزيز .

فقال مستمع حصيف : إن رأى أمير المؤمنين أيده الله صائب سديد ، فقد سكن الله بالحجاج ما تفاقم من فتن ، وأمن به ما اضطرب من أمن ، ولكنه لجوج عنيد ، يسرف فى الدماء لغير حاجة ، وأحرى به أن يجانب الشطط ، فلا يكون سفاحا من الباطشين .

فقال الوليد : وهل يقتل الحجاج ضحاياه دون ذنب يقترفون ، محال أن يكون ذلك من أمير أريب !

فرد المتكلم فى لباقة : كل الذنوب يا أمير المؤمنين لا تستوجب القتل ، وإراقة الدماء فمنها مايقابل بالملامة ، ومنها ما يكافأ بالسجن ، ومنها مايجازى بالضرب أو يلقى بالتهاون والإغضاء ! ولكن الحجاج فى أكثر أموره بطاش سفاح .

فقال الوليد فى اهتمام : لك أن تضرب الشواهد والأمثال !

فأجاب الرجل فى ثبات : لقد دخل عليه بعد معركة الجماجم رجل من بنى جثعم ، جاوز الثمانين ، وكان قد اعتزل الحرب فلم ينضم إلى ابن الأشعث أو سواه ، واعترف بذلك للحجاج ! وقد رأى الطاغية فى وهن جسمه ، وارتعاش مفاصله ، وتخاذل أعضائه من الكبر والشيخوخة ما يباعده عن أعمال الحروب والنضال ... ولكنه أصر على قتله دون ذنب جناه ! فأسرع عمر بن عبد العزيز يقول : أمّا وقد ذكرت دير الجماجم ، فلدىّ من وقائعه ما يشيب الولدان !

فابتسم الوليد ، وقال لعمر : انتظر قليلا أنت يا بن العم ، فالرجلُ شاهدٌ يدلى بشهادته وأنت مدّعٍ تطالب بالقصاص !! فابتسم القوم فى مرح ثم استأنف الرجل يقول :

لقد تقدّم إليه غلام صغير لم يبلغ الثالثة عشرة من عمره ، وبكى فى لهفة وخوف ، وجعل يقول : أنا غلام صغير ، سرت مع أمى وأبى ولا أعلم أين يقصدان ، وظهر من ضعفه وسنه ما ينطق ببراءته ، ولكنه كان من ضحاياه ..
فسأل الوليد فى تطلع أو قتل الحجاج جميع أسراه يوم الجماجم ولم يعف عن أحد ؟ فأجاب الرجل فى حزم : قتل الكثير وعفا عن النزر اليسير ، وقد شاهدت بنفسى نادرة طريفة أقولها لو أذن مولاى !

فقال الوليد مبتسما : هات نادرتك لعلها تروح عنا بعض الشىء !

فرد عمر متضاحكا : أو فى حديث الحجاج ترويح يا أمير المؤمنين . . .

فقهقه المجلس فى أدب يفرضه وجود أمير المؤمنين .. ونظر الوليد إلى الرجل وقال عجّلْ بالنادرة لتدهش عمر بن عبد العزيز .

فقال الرجل وعينه لا تتحول عن الوليد : كان الحجاج قد اشترط على متّهم أن يقر على نفسه بالكفر ، فإذا اعترف بذلك نظر فى إطلاقه أو عقابه ، وقد تقدم إليه رجل ماكر يود الحجاج أن يعجل بحتفه ، فقال يغريه بالإنكار : إنى أرى رجلا ما أظنه يشهد على نفسه بالكفر والمروق .

فابتسم المتهم فى دهاء وقال : أوَخَادِعِى أنتَ عن نفسى أيها الأمير ، أنا أكْفَرُ أهل الأرض وأكْفَر من فرعون ذى الأوتاد !

فضحك الحجاج حتى بدت نواجذه ، واضطر إلى إطلاق الداهية المراوغ ! فابتسم الوليد وتندر القوم وأخذوا فى شجون من الحديث !! على أن عمر ابن عبد العزيز ظلّ صامتا لا ينبس !! وقد أطرق برأسه إلى الأرض كمن يكابد أزمة داخلية تأخذ عليه شعاب تفكيره ، فاتجه إليه الوليد فى حدب بالغ وسأل . ماذا ترى أيها الصديق ؟

فانتبه عمر لسؤال الخليفة ، وأدركته البديهة المتيقظة فقال : أرى إنْ رأى أمير المؤمنين ، أنْ يكتب إلى كلّ والٍ من عماله ألا يبادر بقتل إنسان ما ، ممن يشغبون عليه حتى يستأذن أمير المؤمنين بدمشق ، ذاكراً ما يدعو إلى سفك الدماء ، كان فى ذلك عصمة للأرواح ، وصيانة للمسلمين .

فانطلق وجه الوليد ، ومد يده إلى عمر مصافحاً فى بشاشة ، وقال لجلسائه : رأىٌ سديد والله ، وسأعجل بتنفيذه من الآن وإنى لمستفتح بالحجاج دون انتظار . ففرح الحاضرون فرحا أضاءت به الوجوه ، ولمعت الأسرة ، وأخذوا يمدحون الوليد ويحبذون سيرته الهادية ، وعاد المجلس إلى مثل ما بدىء به من المسرة والانتعاش حتى إذا قضوا حظا مما يسمرون ، تفرقوا مستأذنين .

— ٢ —

كان الحجاج جالسا فى ملأ من أصحابه بالعراق ، فأتاه خطاب أمير المؤمنين يأمره أن يستأذن فى كل دم يراق ، فصبغت وجهه مسحة كئيبة من الأسف والغيظ ، وأخذ يفكر فى الأمر متأملا ما عسى أن يكون قد أوحى به مما خالط نفس الوليد ، وجعل يقلب الرأى على شتى وجوهه محللا معللا ... ثم هداه دهاؤه إلى حيلة بارعة يقنع بها الوليد ، فتكون آية ناطقة على عدالة تصرفه وسلامة مأتاه .

لقد بعث إلى خارجى متشدد ممن يعهد فيهم غلظة القول ، وفظاظة الطبع ، وتهور النقاش ، فقربه من مجلسه ، وأخذ يطرى ـ لمآرب فى نفسه ـ صراحة الخارجى ، ونظافة اعتقاده ، على غير ما يتوقع الرجل ، ثم سأله فى تخابث : ما تقول فى معاوية !؟ فقال الخارجى فى صراحة جرئية : لئيم ماكر غدور ، استحل الخلافة من غير طريقها ، واستباح من المحارم ما أمر الله أن يصان ،

فعليه لعنة الديان إلى يوم الدين ، فلم يظهر الحجاج أكتراثا لما سمع ، وتابع سؤاله يقول : وما تقول فى عبد الملك بن مروان ؟

فقال الخارجى : شريك معاوية فى الغدر والفجور ، إن لم يكن زاد عليه بما جلب من الشرور وروع الآمنين ، فعليه لعنة الديان إلى يوم الدين . . فتباله الحجاج ، وابتسم يقول فى استخفاف : وما رأيك في الخليفة الوليد ؟ فصاح الخارجى لئيم بن لئيم ، وغادر بن غادر ، وسفاح بن سفاح ! فعليه لعنة الله إلى يوم الدين !

فأطرق الحجاج برهة كمن يدبّر فى نفسه أمراً ثم قال : إنك لصريح جرىء وقد وثقت برجولتك العالية ، واعتقادك الغيور ، أفرأيت إن أرسلتك إلى دمشق ثم قابلت الخليفة فى قصره أتجابهه بهذا الحديث . .

فشمخ الخارجى بأنفه وقال : ومَن يكونُ الوليد ؟ إننى لا أخشى غير الله رب العالمين ، فابتسم الحجاج وقال فى تؤدة : سترحل إليه عن قريب ، ثم خلا إلى نفسه وأحضر ورقة يكتب فيها إلى أمير المؤمنين :

« أما بعد . . فقد وصلنى خطابك تأمرنى أن أستأذنك فى كل دم يراق ، وهذا خارجى لئيم ثائر ، جَلَبَ الشرور ، وأثار الموبقات ، وله أنصار وأتباع ، فإن رأيتَ أن تسأله عن اعتقاده فى معاوية ، وعبد الملك وفى شخصك الكريم فسترى ما يوجب القتل السريع ، ولقد كدتُ والله أن أسقى الأرض بدمه لولا ما حرصت عليه من طاعتك ووجوب استئذانك فى إهداره والسلام عليك ورحمة الله » !!

ثم سار الركب من العراق يضم الخارجى وحراسه ورسالة الحجاج إلى الخليفة ، فما أن أتى قصر الخلافة حتى مثل بين يدى الوليد ، وقرأ الرسالة

متعجلا ، ثم سأل الخارجى عن رأيه فى الخلفاء الثلاثة فسمع ما سمع الحجاج ، ورأى من تشامخ المسئول وغطرسته ما استشاط به غضبه ، فأمر جلاده فأزال رأسه عن جسده ، ثم كتب إلى الحجاج يقول : « أنتَ فى بؤرة فاسدة مفسدة فاحمل سيفك ، ولا تراجعنى فى أحد والسلام » ثم قام مغضباً ، فاتجه إلى زوجته أم البنين شقيقة عمر بن عبد العزيز ، فحدثها بما كان من اقتراح أخيها وتصرف الحجاج ، وأخذ يؤيد الطاغية فى إرهابه وبطشه ، وينحى بالملائمة على عمر ابن عبد العزيز ، ولم يدر أن أم البنين ستغضب لشقيقها العادل الرحيم ، فهجنت إرهاب الحجاج وسفّهته ، وفاجأت زوجها بقوارص اللوم ، وقوارع التأنيب ـ وكان معها حليما عطوفا ـ فأرسل يستدعى أخاها من منزله على عجل ، ليرأب الصدع ، ويعيد الصفاء من جديد . .

فسرعان ما حضر عمر ، فألمّ بما كان من أمر الخارجى ثم ما جدّ من خلاف الزوجين ، ورأى من تشعّب الخلاف ، وتطاول الجدل ، ما حمله على الملاينة والتلطف ، فسأله الوليد فى ضيق ـ وقد نظر إلى زوجته فى غضب كظيم ـ ما كنت تصنع يا عمر بالخارجى إذا استمعت إلى ما استمعت إليه من ردّه القبيح ؟

فقال عمر فى تصميم : لم أكن لأستبيح قتله يا أمير المؤمنين !

فرد الوليد فى تهكم ثائر : أفكنت تميل إلى الصفح ، فيتجرأ الناس وتعيد مأساة عثمان رضى الله عنه من جديد ! !

فرد عمر فى لباقة : كلا يا أمير المؤمنين ، ولكنى كنت أراجعه وأناقشه حتى يتوب ، فإذا لم يرجع سجنته فى محبسى ليفكر من جديد ! !

فاحمر وجه الوليد ، وصاح فى غيظ : ذلك ما لا أطيق ، ثم طرق الباب طارق . .

فنهضت أم البنين إلى خلوتها الخاصة ، وكانت تجلس دائماً إلى ستر قريب من مجلس الوليد فتسمع ما يدور به ، دون أن يعلم أحد عنها شيئاً غير أمير المؤمنين . . وإذ ذاك دخل سليمان بن عبد الملك شقيق أمير المؤمنين ، وابن عم عمر بن عبد العزيز ، فأدرك الخليفة أن أخاه ما قدم عليه فى مثل هذه الساعة إلا لأمر شديد .. فصرف ما بنفسه من الغضب ، وانبسطت أساريره ، فحيا الوافد القريب تحية كريمة ، ثم سأله فى لطف مهذب : ألك من مطلب يا سليمان ؟ فتلعثم سليمان قليلا ثم قال فى اضطراب لا تستبين به الكلمات دون عسر شديد : إن الحجاج جزاه الله قد أرهق يزيد بن المهلب بما لا يستطيع ، وإنى أستشفع إليك فى يزيد ، فقد نزل دارى ، ورآنى أهلا للشفاعة فيه ، وإذا كان الحجاج يطالبه بكثير المال أو قليله ، فعلىّ أن أدفع ما يريد .. !

فعبس وجه الخليفة فجأة وقال فى ثورة : لقد كتب إلى الحجاج يكبر زلة يزيد ، ويدعو إلى حتفه ، وما أنا بمستطيع أن أفسد عليه خطته فى الزجر والتأديب !

فردّ سليمان فى أدب يكسوه الحياء والهيبة ، أنا لا أستشفع إليك فى عدوّ يا أمير المؤمنين ، فيزيد وأبوه وأخوه من نصرائنا المخلصين ، وقد جاهدُوا فى صيانة ملك بنى مروان بما لم يقم به الحجاج ، وإنى لأستحلفك بالله إلا نظرت إلى يزيد من جديد !!

فردّ الوليد متجهما . . دعنا منه ! ! قد نفذ أمر الحجاج دون نقاش ! ! وهمّ بالوقوف فى غضب ظاهر . فخجل سليمان خجلا جعل عرقه يتصبب فيغسل وجهه ، ويبل ثيابه ، ثم انسحب متألما ملتاعا فتبعه عمر بن عبد العزيز .

وساد القصر وجوم كئيب ، فأم البنين قد سمعت ما دار من الحديث ،

فقابلت زوجها غاضبة صاخبة ، ثم انفجر بركانها فجأة فصاحت فى تهكم : يا لحظ الحجاج من رجل سعيد ! ! لقد أغضبتَ فى سبيله أخاك وزوجتك وابن عمك فمن ستستبقيه ؟

فقال الوليد فى غيظ : أينّا أغضب الآخر ؟ أنتم تتدخلّون فى أمور السلطان فإذا عالجتُ الشيء بالحزم تـكالبتُم على ، وكأنـكم أعداء ألداء تثيرون من حولى الفتن الصاخبة فلا استريح ! !

فأجابت أم البنين فى تهكم ساخر : كلّنا عدوك يا أمير المؤمنين ، أما الحجاج وحدَه فحبيبك الفريد !! ثم انخرطت فى بكاء مرير ! !

ضاق الخليفة بأمره ، وودّ لو استطاع أن يبدّد عبوس القصر واكتئابه ، فجعل يفـكر فيما يزيل الغضب والنفور ، وما كاد يستريح قليلا من خواطره المتشابكة ، حتى سمع طارقا يدقّ الباب من جديد ! ! فخرج إلى لقائه بنفسه مؤملا أن يجد موضوعا آخر ينسيه ويلهيه ! ولـكنه شاهد منظراً عجباً ! فقد رأى يزيد بن المهلب مكبلا بالأغلال ومعه فى قيده أيوب بن شقيقه سليمان ، وفى أيديهما رسالة صغيرة ، خطها سليمان بقلمه ، وفيها يقول :

« أما بعد فإنى وجهت إليك يا أمير المؤمنين بيزيد بن المهلب وابن أخيك أيوب بن سليمان ولقـد هممتُ أن أكون ثالثهما ، فإن هممتَ بقتـل يزيد فبالله عليك أن تبدأ بأيوب ابنى من قبله ثم اجعل يزيد ثانيا ، واجعلنى إذا شئت ثالثاً والسلام » فاستخذى الوليد واستحيا لمـا قرأ وشاهد . . ثم قال : لقد أسأنا إلى سليمان إذ بلغنا به هذا المبلغ ، وبادَرَ فأحضر حدّاداً فأزال القيد وعفا عن يزيد بن المهلب بعد أن منحه عشرين ألفا من الدراهم وقال له : إذهبْ كما تريد فلا سلطان للحجاج عليك مهما ألحف وأعاد » .

ثم عاد إلى زوجته يستدنى صفاءها ، فلانتْ بعد جماح ، وهدأتْ بعد إباء عنيد ، ورأى الخليفة أن يُداعبها ببعض الحديث ، فقال فى ملاطفة : إنك لتستهزئين بالحجاج ، ولو — والله — رأيتيه لاضطرب فؤادك بين أضلاعك ، وتلعثم على شفتيك قولُك الفصيح !! فهزتْ أم البنين رأسها ساخرة وقالتْ فى تحدّ صبغ ملامحها صبغة رائعة باهرة ، علىّ به إن شئت ، وسأريك مقامه بين يدى لتعلم من تكون ابنة عبد العزيز !!

فضحك الوليد حتى استلقى على جنبيه وقال فى إصرار : لك ما تشائين ، فالحجاج فى طريقه إلينا منذ أيام. وسآذنُ له فى لقائك لأرى موقفك من الرجل فى عنفه الشديد فصاحت متهللة : وَعْدُ الحر يا أمير المؤمنين ! وتفرّق بهما القول إلى سمر حبيب .

تصرمت أيام ، وحانت الساعة المرتقبة ، فمثل الحجاج بين يدى الوليد ، وتطارحا الرأى فى شجـون من الحوادث ، وأفانين من الوقائع ، فقال أمير المؤمنين، وأمّ البنين تسمع من وراء ستار إن زوجتى تريد لقائك يا حجاج فمتى ؟ فرد الحجاج فى عجلة : دعك من رغبات النساء ومفاكهتهنّ يا أمير المؤمنين ، فإنما المرأة ريحانةٌ وليست قرمانة ، فلا تطلعْها على سرّك ومكايدة عدوك وأغلق دونها رأيك ، فتستريح . . .

فضحك الوليد فى حفة ، وقال : لا بدّ من مقابلتها الآن ، وها هى ذى خلف الستار ، ثم رُفع الحجاب بغتة ، فظهرتْ أم البنين !

اضطرب الحجاج لما بدرَ منه، وفاجأته السيدة المغضبة تقول: قِفْ يا حجاج ولا تجلس ، فلستَ من آل مروان لتجلس جوار أمير المؤمنين .

فنهض الطاغية واقفاً كما أمر .

فهزتِ السيدة رأسها ، وقالتْ في سخرية : إيه يا حجاج أأنتَ الممتن على أمير المؤمنين بقتال ابن الزبير وابن الأشعث ، أما واللهِ لولا أنْ علم الله أنك شر خلقه ما ابتلاك برمى الكعبة الحرام ، ولا بمصرع أول مولود فى الإسلام !

فسكتَ الحجاج ، ولم يُجبْ ، فنظرت إليه ، وواصلتْ حديثها تقول فى اشمئزاز : إيه يا حجاج ، أتَنْهى أمير المؤمنين عن مفاكهة النساء ، وبلوغ أوطاره معنا ، فإن كُنَّ يلدن مثلك ، فما أحقه بالقبول منك ، وإن كنّ يلدن مثله فهو غير قابل لما تقول ! !

فسكتَ الحجاج ، ولم يُجب ، فهزت رأسها متشامخة ثم قالت فى استخفاف :

لماذا هربت يا حجاج من « غزالة » وهى إحدى النساء ! أفكانت ريحانة وليست قهرمانة ، أم أنها فى أنوثتها القوية كأسد هصور يزأر أمام رعديد خؤور ؟

ثم صفقت ، فحضرت جاريتها، فقالت أخرجيه أخرجيه !! فسحبت الطاغية كالدابة الذلول ! !

قال الوليد وقد قابل الحجاج عقب ذلك : ما رأيك فى أم البنين .

فرد الحجاج فى احتراس : والله يا أمير المؤمنين ما سكتتْ عنى حتى وجدت نفسى قد ذهبت وما ظننت أنثى تبلغ مبلغها بين النساء .

فصاح الوليد مبتسما : ألا تترك كياستك معى يا حجاج مرة واحدة ، أنا أدرى برأيك الخاص فى أم البنين ! !

بطـل مضطهد

جلس سليمان بن عبد الملك بعد أيام من توليته الخلافة ، جائش الصـدر ملتهب الغيظ يفكر فى هؤلاء الذين أخلصوا الودّ لسلفه الوليد ، فكانوا دعامة لعرشه ، وسندا لسلطانه ، وأنه ليعض الكف غيظاً أن مات الحجاج قبل أن يتمكن من دمه ، فكم كان يتمنى أن يبطىء به الأجل ، حتى يتسنم الخلافة ، فيستقدمه من العراق مصفدا مغلولا ، ثم يذيقه أمرّ وخزات السباب ، وأشد داميات القوارص ، حتى إذا انقطع به القول وأدركه البهر ، أمر به فأريق دمه بين يديه ثم بعث برأسه إلى العراق ، فصُلب بمرأى من مناوئيه ، ومشهدٍ من أعوانه ومريديه ، ولـكن من ذا يتحكم فى القدر ، وقد أراد أن يفلت الحجاج من يدى سليمان فينقذه الموت من فضيحة مُخجلة ، وخزى عظيم . . . على أن الخليفة قد جال بفـكره فيمن اصطنعهم الحجاج ، واصطفاهم من القادة فذكر البطل الفاتح قتيبة بن مسلم الباهلى ، فاتح بلاد ما وراء النهر ، وذكر الشاب الباسل محمـد بن قاسم الثقفى بطل الهند ، وفاتح بلاد السند ، فابتسم ابتسامة شامتة وقال فى تشف حاقد : لا بد أن يكون فى مصرع هذين البطلين بديلٌ عما فات من دم الحجاج ! ! فلقد كانا من خيرة رجاله ، وأعز أعوانه ، بل إن أحدهما قد ساعد الوليد على إحباط بيعتى وتشريد الأمر من يدى ، وهمّ الآخر بذلك لولا أن سبقت كلمة القضاء ! ! ولا بد أن يسيل دمهما مراقاً مهدوراً ، فيعلم الناس أن سليمان بن عبد الملك لا يمتنع على بأسه الصارم ، بطل فاتح أو مغامر صنديد ! !

وهدأتْ نفسه قليلا حين صمم على الغدر بهذين البطلين ، وابتسم ابتسامة المقتدر المعز المذل .. غير أنّ هاجساً خفياً نبض فى خاطره يذكره بمـا كسب

هذان الباسلان للدولة العربية من أمجاد !! وما أهْدَيا إلى الإسلام من فتوح ، وكاد يستمع إلى هذا الهتاف الطاهر ، لولا أن عقارب الحسد لدغته فى مجلسه لدغا ثائراً ، فتراجع يقول : وما كسبتُ أنا من فتوح هذين الباسلين؟ لقد كتبا بجهادهما الرائع مجداً خالداً تذكره الأيام فى سجل الوليد ، وتحفظه الأقلام فى صحيفة غير صحيفة سليمان ! حتى ليقول التاريخ أن عهد الوليد بن عبد الملك ، كان عهد انتصار وفتوح وإقبال . . . ثم ينتقل إلى عهدى فلا يجد ما يقول . . . ليتهما كانا خاملين رِعْدِيدَيْن ، فلا يفخر ببطولتهما عهد الوليد ، ولئن كانا على غير ما أود فلا بد أن أذيقهما النكال ، غير عابىء بما يتحدث به الناس !!

وطرق الباب حاجبه يستأذن عليه فى دخول صديقه يزيد بن المهلب ، ومعه بطل أفريقيا وفاتح الأندلس موسى بن نصير !!

فتجهّم سليمان فى مجلسه تجهما عابساً ، ثم صاح فى غضب : ادخل يزيد وحده ، واستبق موسى لديك حتى أنظر فى أمره وأستدعيه !!

ودخل يزيد بن المهلب باسماً ضاحكا، فحيا سليمان تحية الخلفاء ، وأخذ مكانه إلى جواره ، واندفع يقول فى تملق واستعطاف :

لقد عاد للخلافة رونقها الخالب ، وبهاؤها الساحر منذ ائتلق فى آفاقها ضياء أمير المؤمنين !! ولقد كانت أيام الوليد — عفا الله عنه — محاقاً قاتما كسفت به نجوم ، واختفت فى دياجيره كواكب !! ولكن الليل لا يدوم ، فقد أذن الله لشمس العدالة أن تسطع وضيئة باهرة منذ سطوع أمير المؤمنين حرسه الله، فهنيئاً للعرب والمسلمين بعهدك السعيد !!

فترنح الخليفة فى مجلسه، وهز الأطراء الكاذب من أعطافه ، فقال فى ابتسام

مغرور : ولقد كاد كوكبك يا يزيد يختفى فى ظلام الوليد ، لولا أن تداركتك بالإنقاذ مجازفاً بحياة ولدى أيوب ! !

فانحنى يزيد انحناءة الشكر والاعتراف بالجميل ، وقال فى دهاء : لعن الله الحجاج فقد سوّد صحيفتى لدى الوليد ، ولولا عناية إلهيه دفعتك يا مولاى إلى إنقاذى لصرت رمة بالية تصفر عليها الريح ! !

فعض سليمان على شفتيه كالمغتاظ ، وقال فى أسف : ليتنى أدركت الحجاج فأريق دمه بين يديك ، ولئن ذهب بجرمه إلى عذاب الله وجهنمه ، فلن يذهب أصفياؤه وعشراؤه من قبضتى الباطشة ، فإن لهم يوماً عبوساً تمطر سماؤه دماً قانيا ، وتنفجر أرضه باللهيب ! !

ثم قال يزيد فى تملق : هذا بعض ما يستحقون فى الدنيا ، ولهم فى الآخرة لدى الجبار المنتقم سوء المصير !

فرد الخليفة يقول فى تشف حقود : سأنتقم قريبا من كل غاشم أيّد سلطان الوليد ، وأعانه على الثبات والاستقرار ، ومن هؤلاء موسى بن نصير ، وإن اصطحبته معك لتشفع فيه ! سأنتقم من موسى ! ومن قتيبة ! ومن محمد بن القاسم . ومن كل بطل كسب المجد لتاريخ الوليد !

فاكتئاب يزيد اكتئابا ظهرت دلائله العابسة فى وجهه ، وقال فى أدب رقيق : الأمر أمر مولاى أمير المؤمنين ، يعز من يشاء ويذل من يشاء ! غير أنى أعلم أن موسى بن نصير لم يكن من أعوان الحجاج ! فقد كان يبسط نفوذه غربا ، وكان طاغية ثقيف فى المشرق يطيح بالرقاب ! !

فنظر سليمان نظرة ماكرة إلى يزيد ، وقال فى غضب : أين ذهب عقلك يا هذا ؟ ألم يثبّت موسى بن نصير دعائم الخلافة للوليد فى أفريقية ، ثم ألم يفتح

بلاد الأندلس فيغنم آلاف الآلاف من الدرر والكنوز ، ويرجع إلى الوليد فيعطيه جميع ما أحرز ، ويكتب بذلك صحيفة لامعة من صفحات الجالس على عرش الخلافة بدمشق ! هذا قليل يا يزيد ؟ !

فرد يزيد فى تخابث : لقد أساء موسى بلا شك إساءة غير مقصودة ، ولو كان يعلم ما بينك وبين أخيك من شقاق لتريّث قليلا فى الفتح والانتصار ، ومن أين له أن يعلم ، وهو نازح بعيد ، وأسرار القصور مغيبات محجبات !

فصاح سليمان فى غضب : أتخدعنى يا يزيد ؟ ! لقد همّ الوليد بخلعى من ولاية العهد وتحدث فى ذلك مع ولاته وعماله ، وبادر الحجاج بالامتثال فأعلن الموافقة وأخذ يحقرنى فى العراقين ، ويختلق عنى شتى الأراجيف ، ومثل هذه الأنباء لابد أن تصل إلى أمير فاتح كموسى بن نصير ، يحتل إمارة ممتدة الأطراف ويتنقل فى فتوحه من مضمار إلى مضمار !!

فنظر يزيد نظرة المتوسل ، وسأل فى أدب ولطف : أيمكن أن نسأل موسى عن مبلغ علمه ، لنقف على ما لديه من أنباء فلعله فى مغتربه النازح برىء برىء ! !

فوقف سليمان فى مجلسه غاضبا ، وصاح : لقد راسلتُه شخصيا فى أواخر عهد الوليد ، وطلبتُ منه أن يرجىء حضوره بالغنائم والسبايا ، أياما معدودات ، حتى يفارق الوليد هـذا العالم ، فيأتى إلى ، فأرث أنا الكنوز والأموال ، وأضيف مجد الفتوح إلى عهدى السعيد ، ولكنه أسرع وبادر ليبهج الوليد !

فابتسم الوليد ابتسامة ماكرة ، وقال فى استفهام : من يدرى لعل الرسالة لم تصل إلى موسى ، وهو عن كثب منا ، أفتأذن له يا أمير المؤمنين !

فقال سليمان فى غلظة : سآذن له ، لترى عقوقه وجحوده ، فتقضى عليه بشر المآب يا يزيد ، ثم صفق بيده يطلب من الحاجب إدخال موسى مهانا غير مكرم ! فحضر القائد أسيفا ضارعا ، تعلوه كآبة عابسة ، ثم انحنى فى استكانة مستذلة يحيى أمير المؤمنين !

فقال سليمان فى غطرسة متعالية ، وشموخ متكبر مقيت : ألم تصلك رسالتى أيها الآثم الظالم ؟ فكيف خالفتها وبادرت بالحضور ؟ !

فرد موسى فى تؤدة هادئة : شهد الله لقد وصلت إلىّ رسالة أمير المؤمنين حرسه الله فى منتصف الطريق ، ومعى من السبايا والغنائم والأسلاب ما لا يدخل فى نطاق ، فإذا كورت راجعاً إلى الأندلس تمرّد الجنود ، ونهب كل قائد ما تحت يده ، ثم ساح فى مضطرب الأرض بذخائره فلا أقدر على احتجازه ، وإذا وقفت حيث أنا بين أفريقيا ومصر وبين قبائل البربر وحشود الروم ، فسيختلط الجند والسبى بالناس ، وربما استوطنوا هناك مكانا لا أقدر على انتزاعهم منه ، ويتعذر على أن أصرفهم عنه .. وإذ ذاك لم أجد بداً من المسير !

فقال سليمان فى غيظ : لم تجد بداً من المسير لتسعد الوليد بما يدخل عليه المسرة والانتعاش ، ولتشقينى بالغيظ والانقباض دون اكتراث لواجب أو تفكير فى مصير . . .

فأطرق موسى لحظة ثم رفع رأسه فى هدوء : رفقك يا أمير المؤمنين فإن ما فتح من بلاد الأندلس أقل بكثير مما لم يفتح بعد ، ولئن أسعدنى الله بعفو الخليفة ورضاه ، لأنهضنّ على رأس الجيش بالأندلس ، ولأفتحنّ كل مكان لم تطأه أقدام العرب من قبل ، فقد كان فى نيتى علم الله أن استحث الغزو

مواصلا دؤوبا فأخترق المدن الإفرنجية ، حتى أعود إلى المشرق عن طريق القسطنطينية ، وإذ ذاك أرجع إلى أمير المؤمنين سليمان بأضعاف ما رجعت به إلى الوليد ، وأضيف إلى عهده الزاهر من الفتوح ما لا يقاس به عهد أخيه ! !
فتنمر سليمان فى مجلسه ، وقال فى استهزاء : ويحه ! يستميلنى بمعسول الأحلام ، ولست ممن ينخدعون ، ولابد من الانتقام العنيف !

فأطرق موسى ولم يجب ! وصاح سليمان بيزيد ! لقد اعترف صاحبك بوصول رسالتى إليه ، ومعصيته لرأيى فماذا تقول ؟

فقال يزيد فى أدب : تلك جريرة فادحة دون نزاع ، ولكنها لم تكن عن قصد خبيث ، ولئن أطال الله فى الأجل ليخدمن أمير المؤمنين بأضعاف ما خدم به الوليد !

فقال سليمان : إن موسى خادم لئيم : أفيخدمنى وقد عصى سيده وولى نعمته، معاوية بن أبى سفيان ؟

فرفع موسى رأسه فى أدب وقال : متى كان ذلك يا أمير المؤمنين ! ؟ لقد كنت عبد معاوية المطيع ، وكان رحمه الله يقدر طاعتى وولائى فغمرنى بخيره الجزيل !

فأجاب سليمان فى جفاء غليظ : لقد تناقل الناس عنك أنه دعاك إلى حرب على بن أبى طالب فى موقعه صفين ، فلم تشأ أن تطيع ؟

فأجاب موسى فى صراحة مهذبة لا ينقصها الثبات : ذلك حق يا أمير المؤمنين فقد قلت لمعاوية رحمه الله أن المحارب لا يؤدى واجبه فى الميدان دون إخلاص واقتناع ! ! وإن ضميرى الحربى لا يأذن لى أن أخوض حربا طحونا بين طائفتين من المسلمين ولو كانت شهد الله من حروب الجهاد لبذلت الروح فى سخاء .

فقهقه سليمان كالساخر ، وقال : كأنك تعتقد أن أتباع على كانوا من المسلمين !

فأطرق موسى إلى الأرض ولم يجب !! وتدارك يزيد الموقف فقال لقد قبل معاوية رحمه الله استعفاءه عن صدر سمح ، وعفو حليم ! وأرى أن يعفو عنه أمير المؤمنين اليوم إحياء لذكرى معاوية العظيم !

فنظر سليمان نظرة ساخرة ثم قال : فيم استخفافك بوالدى عبد الملك ابن مروان أيها الصعلوك الحقير !

فنظر موسى كالمأخوذ وقال فى عجب : حاشا لله أن أستخف بسيدى عبدالملك رحمه الله ، ولو علم بذلك لأذاقنى شر النكال !!

فرد سليمان في سخرية : لقد جاءتنى الأنباء أنك خرجت بالناس حين كنت والياً على أفريقيا مصليا صلاة الاستسقاء فأخذت تدعو الله دعوات ضارعة ليرسل الغيث على المسلمين ، فقيل لك : ادع لعبد الملك أمير المؤمنين ، فقلت فى وقاحة : هذا موقف لا يذكر فيه غير الرحمن ! أصحيح ذلك ؟

فقال موسى فى رفق مهذب : نعم يا أمير المؤمنين ، فالموقف موقف السماء لا موقف الأرض ، ولولا الإخلاص لله وحده ما هطل السحاب !

فتضاحك سليمان وقال ليزيد فى استهتار : يتظاهر اللئيم أمامى بالخشية والصلاح كأننى لا أدريه !

فقال يزيد بن المهلب مبتسما : لعله صادق يا أمير المؤمنين ، ولا عليك فى ذلك ، فمن خاف الله أمنه الناس !

فانتهز الخليفة رد صاحبه وقال فى عجلة : كيف يأمنه الناس وقد فعل بطارق ابن زيادة الأفاعيل ؟

فرد موسى فى أدب عفيف : أتأذن لى يا أمير المؤمنين ، فتجهم وجه الخليفة وصاح يقول : لا أريد أن أسمع حديثك ، فاسكت على غيظك الحبيس !

فتدخل ابن المهلب ملاطفا، وقال فى توسل: لو تفضل أمير المؤمنين حفظه الله فأذن بمناقشة موسى فى مسألة طارق ، لعرفنا المخطىء والمصيب !

فصاح سليمان فى غيظ غليظ : الأمر واضح يا يزيد ، لقد حسد موسى طارقاً على شجاعته وبسالته ، وعز عليه أن يستطيع هذا البربرى الباسل ، فتح بلاد الأندلس بعد قليل ، فافترى عليه ، المآثم ، وقابل بطولته الباسلة بدناءة سافلة ، وغدر وبذل ! !

فنظر موسى كمن يستأذن فى القول على حياء : فأدرك يزيد ما بنفسه فقال لأمير المؤمنين بأبيك رحمه الله ألا أذنت يا مولاى !

فأظهر الخليفة تأففه الكريه ، وجعل ينفخ فى مجلسه كمن يتضجر بصاحبه ثم لانت عريكته بعد لأى ، فأشار بيده إشارة من يأذن للمتهم فى الحديث ، فاندفع موسى بن نصير يقول فى هدوء وقور : كان طارق بن زياد ساعدى الأيمن فى أفريقية ، فقد اكتشفت بطولته النادرة وثباته الرائع ، فرميت به الخطوب فى معارك حامية ، ومآزق دامية ، واستطاع أن يغنم النصر سريعاً فى إعجاب وتقدير ، وكانت قبائل البربر المترامية ترهب فزعا لسطوته وشدة مراسه، فما يثور بطن من البطون المتناحرة الحاقدة ، حتى يهب طارقا كالعاصفة فيجعل الثورة طاعة ، والتمرد إذعانا واستسلاما ، ولم يداخلنى شىء من الحقد عليه فى بسالته وهيبته ، وهو بين قومه ومعشره من البربر ، ولو كان الأمر كما قيل كذبا لأمير المؤمنين لخفت على نفسى منه ، ولكنى كنت ـ علم الله ـ أعجب بفروسيته ، وأشيد ببسالته على رءوس الإشهاد ! ! فتولى قيادة جيوشى فى فتح بقية بلاد المغرب ، واستطاع السيطرة على حصون المغرب الأقصى حتى

المحيط الأطلسي ! ! ثم قاتل وجالد حتى بلغ (طنجة) قصبة البلاد وأم المدائن فحاصرها وافتتحها ، وأسلم أهلها على يده ، وصار أميرها المطاع ، أفلو كنت حاسدا حاقدا كما قيل لأمير المؤمنين ، أفأستطيع الصبر عليه وهو أسد خادر في عرينه بين أشباله وآجامه وغياضه ! ! بربك ، ألا نظرت الأمر بعين الإنصاف يا أمير المؤمنين ! !

فقال سليمان في ضيق متبرم : ولكن الشهود قد اعترفوا جميعاً بأنك حين التقيت به في مدينة (استرقة) لأول مرة ، وقد ترجل عن جواده ، ونهض قائماً بين يديك ، يحييك تحية الجندي للقائد الآمر . . . جابهته بالملامة المؤذية والنقيصة المخزية أمام عسكره ، وبالغت في تهجينه ، ثم ضربته بالسوط ، وغللته بالقيد مع أن الأندلس فتحت على يديه لا على يديك !!

فأجاب المتهم في قوة ثابتة لا يشوبها تردد والتواء : شهد الله لم أضرب طارقا بسوط ، أو أغل يده في قيد ! ! ولكني سقت إليه بعض الملام لأمر خالفني فيه ، إذ كنت أوصيته أن يقف حيث آمر حتى تأتيه الإمداد !! ولكنه خالف الأمر ، فاستوجب مني بعض الملام ! !

فصاح سليمان في لهجة راعبة : لا أم لك يا موسى ! أمثلك يموه على الأحاديث ، لقد سارعت إليه ، فوجدته توسع في الفتح على أحسن ما يرجوه قائد مقدام !! فجني لك خير الثمار من أيسر طريق ، دون أن يحصل ما تتوقعه ، كاذباً من وثوب مكيدة أو نشوب ثورة !! وقابلته ، وقد تم كل نجاح على يده ، فلم الملامة والتشهير أيها الرئيس الحقود الخداع ؟ ! فواصل موسى حديثه في هدوء — وكأنه لم يسمع سباب أمير المؤمنين — فقال في جرأة ثابتة : إن أوامر القيادة في ساحة الميدان لابد أن تطاع يا مولاي ، فإذا تجرأ جندي على مخالفتها لسبب ما يرتئيه ، فقد استوجب الملام ! وهبه خالف ووفق ، فلا يبعد

أن يؤمر مرة أخرى ، فيخالف ويستعصى عليه النجاح ، فتكون الهزيمة الشنعاء !!

فصاح سليمان مغبرما : صه يا لجوج ، لقد كشفنا طواياك !!

فقال يزيد بن المهلب فى رفق مستعطف : لقد أخطأ موسى يا أمير المؤمنين؛ ولكنه المسئول المدّر لعواقب الأمور ! أفلا تشمله بالمغفرة والرضوان !!

فتهجم سليمان فى غلظة وقال : أأشمله بالصفح والغفران، وقد سرق الغنائم ، وسلب الأموال !!

فقال موسى فى ضراعة: أين هذه الأموال التى قيل لك عنها يا أمير المؤمنين ولو كنت سرقت شيئاً أو اغتصبته لأتيت به معى ثم أعطيته إلى خاصتى من الأقارب والأشياع ! إنّ منزلى أمامك ، وأقاربى تحت قبضتك !! ولك أن تبحث فى كل فج عما يمكن أن أتستر عليه !! ولن يغلب أحد سلطان أمير المؤمنين .

فصاح سليمان محتدا . . . ورأس والدى عهد الملك إنك لسارق مغتصب حقود ، ولقد كنت على أن أفصل رقبتك جسدك لولا شفاعة يزيد !! وهأنذا أهب لك حياتك من أجله وحده ! على أن تدفع سريعاً ما اغتصبت من مال المسلمين !!

فقال موسى فى يأس : لم أغتصب درهما واحداً يا مولاى ! كذبٌ ما قيل ، كذبٌ ما قيل ، فعبس سليمان فى وجهه عبسة منكرة ، والتفت يصيح بيزيد: أمامك صاحبك ، قد حفظت دمه من أجلك وحدك على أن أتسلم منكما ستمائة وتسعين ألفاً ذهبا فى حوزته ! ولئن لم يحضر ما قدرته عليه ليكونن من الهالكين . . . فرد يزيد فى امتنان : الشكر والنعمة لأمير المؤمنين .

ثم خرج الرجلان يطوفان بالقبائل . ويلمان بشعاب الأحياء ، يجمعان من كل أريحى كريم ما تجود به نفسه من العطاء ! وفيهم من يتبرع لسخائه بألف دينار ، ومن يقذف على مضض أليم بدرهم واحد ! ! وقد دفعت قبيلة لخم وحدها تسعين ألفاً ، ودفع آل المهلب قرابة ذلك ! !

ولبث القائد المظفر يتسول ويستجدى الأيدى من الرؤساء والأذناب حتى حصل على أكثر من النصف المطلوب ، وأقبل مع صاحبه يزيد يتشفعان فى الباقى فى ملق واستعطاف ! فعفا الخليفة بعد تشدد غليظ ، وأرسل لعناته الغاضبة على القائد المظلوم ! فسمعها فى صمت شاحب كئيب ، ثم تسلل حزينا باكياً إلى حيث لم يسمع عنه بعد ذلك تاريخ !! وخيم محاق بهيم !!

خليفة زاهد

تأوه سليمان بن عبد الملك فى مرقده لثقل فى أمعائه ظلّ يلح عليه حتى شرّدَ هدوءه ، فبعث إلى محترفى الطب فى دمشق فلم يجد لديهم ما يذهب سقامه ! ! واستعصى الداء واستفحل حتى بدا الموت لعينه فدعا على عجل مستشاره رجاء ابن حيوة الكندى ، وأخذ يبثه مايكابد من سقام ! فقال رجاء أشرت عليك يا أمير المؤمنين ألاّ تفرط فى الطعام والشراب ، فقد رأيتك منكباً عليهما انكباباً لا يدع لمعدتك راحة من تعب أو أمناً من اضطراب ، ولئن شفى الله أمير المؤمنين لأطردنَّ منْ بقصره من الطهاة !! ولأجعلنّ غذاءه سهلا ميسورا يُصحّ ولا يعل ، ويفيد ولا يوبق . .

فنظر سليمان إليه نظرة حزينة وقال فى ألم ما أظن شفائى ميسوراً بعدم اليوم ، فقد رجع الأطباء عنى دون طائل ، وإنى لأحسّ من سطوة الداء بما لم أحسّ به من قبل ، فأمعائى تكاد تتشقق قطعاً قطعاً ، ونفسى المبهور اللاهث يكاد ينقطع ، وعرقى كما ترى يتصبب كالغيث دون انقطاع فأطرق رجاء فى إشفاق وهو يقول : لا يأس من روح الله ! ! ثم رفع رأسه فوجد عينى سليمان تدمعان ! ! فابتسم إبتسامة مشجعة ! وقال فى ملاطفة : أو يبكى أمير المؤمنين ؟

فردّ سليمان فى ضيق ، ومالى لا أبكى يا رجاء ! ! وقد مات ولدى أيوب وكنت أتمنى أن يكون ولىّ عهدى وصاحب أمر الناس من بعدى ، وإنى أستعرض أولادى الصغار فأجدهم أطفالا لا يرضى بهم أحد مهما أقمت الوصىّ الأمين ! !

فقال رجاء فى حزم ، إن مشيئة الله يا أمير المؤمنين فوق كل شىء ، وللخلافة

أعباؤها الثقيلة فلعلّ الله قد رحم أفلاذ أكبادك أن يصطلوا بنيرانها ولئن مرّ عهدك وادعاً سا كناً ، فليس هكذا الأيام ، ولعلك رعاك الله وشفاك تذكرُ ما قابله أبوك رحمه الله من صعاب ، فزفر سليمان زفرة حارة ! وقال لقد رفّهت عنى بحديثك يا رجاء وما أرى يومى إلا قد حان وأحب أن استخلف من أبناء مروان من ينهض بشئون المسلمين فمن تراه ؟

فسكت رجاء كالمفكر ثم قال أبقاك الله يا أمير المؤمنين وعافاك . . إن اليسرَ بعد العسر والضيق بعد الفرج ، وما أظنّ مرضك غير سحابة صيف تنقشع عن قريب ! فدعْك من حديث الوصية الآن ، فتأوّه سليمان كالملدوغ وقال أنت يا رجاء لا تحسّ بضناى الكارب وألمى الثقيل ! ناشدتك الله أن تختار معى الخليفة الأمين ! !

فنظر إليه رجاء نظرة حائرة ثم قال فى جد حازم : إذا صممتَ يا أمير المؤمنين على الوصية فأعلم أنك ستُحاسب فى قبرك عمّن استخلفتَ على المسلمين فإن كان صادق العقيدة حسن السيرة كانت أعماله فى ميزانك وتقرّبتَ به شفيعاً إلى الله وإن كان على غير ذلك رانتْ ذنوبه على كاهلك ولقيتَ الله بحساب رجلين لا رجل ! فالله الله يا أمير المؤمنين .

فتطلّع سليمان إلى رجاء وقد وضع يده على أحشائه كأنّه يحاول أن يسكن زلزلة تثور ! وقال : باركَ الله فيك من ناصح أمين يا رجاء ! هكذا العلماء الأتقياء ورثة النبيين ! فمن ترشّح من أبناء عبد الملك بن مروان ! !

فقال رجاء سريعا كأنما يحاول أن ينتهز رضا سليمان وخشوعه ! ولِمَ تُضيّق الدائرة يا أمير المؤمنين فلا تتعدى أبناء عبد الملك ! وأنا أعرف أن هشاما ويزيد أخويك لا يبلغان من القبول مبلغ سواهما من بنى مروان ! !

فقال سليمان : لا ، لا ، عافاك الله ، أيخرج الملك من بنى أبى !! وإلى مَنْ يتجه يا رجاء ؟

فقال رجاء فى تصميم إن أردتَ وجه الله فإلى عمر بن عبد العزيز بن مروان ثم إن أردت الأمر بعد ذلك لبنى عبد الملك فبايعْ ليزيد أخيك من بعده !!

فعضّ سليمان على شفتيه كالحائر لحظة ثم عاد إليه هدوءه فقال : لقد نسيتُ عمر بن عبد العزيز فجزاك الله خيراً إذ ذكرتنى به الآن :

فابتسمَ كالمرتاح ، وقال برّبك يا أمير المؤمنين أترَى فى بنى مروان أعدلَ منه سيرة وأنقى سريرة ، وأصلبَ إيمانا وأصدق يقينا فى النائبات !!

فقال سليمان مؤمّنا على قوله لا والله ! ثم إن له علىّ دينا ثقيلا حان أن أوفيه دون إمهال !!

فقال رجاء فى أدب لولا إشفاقى الحريص على صحتك يا أمير المؤمنين لسألتك أن توضح لى كيف اقترضتَ منه هذا الدين الثقيل .

فاعتدل سليمان من نومته وقد انطبعتْ على محيّاه الشاحب ملامح شاهمة وقال فى همس وخفوت !! تعلمُ يا رجاء أن أخى الوليد ـ عفا الله عنه ـ أراد خلعِى من ولاية العهد ، وكاتبَ عمّاله فى الأمصار فأيدوه وظاهروه !! ولكن عمر بن عبد العزيز وكانَ والياً على المدينة جاهره بالعصيان ! وقال لا أنقضُ بيعتى الصادقة لسليمان فأغضب الرحمن !!

فقال رجاء فى ابتسام : ليسَ هذا بمستغرب من عمر فهو لا يخشى فى الحق لومة لائم من الخلفاء !! فتابع الخليفة يقول : وقد تعرّض لاضطهاد بالغ من أجل موقفه !! فعُزل عن المدينة ، وسُجن فى مكان خاص ليرجع فى بيعته ، وأغلظَ له الوليد فى الوعيد ! ومع مالقى من العنت الكريه فقد وقف ثابتاً

لا يتزحزح ! وكأنه الطود المكين ، ويمينا لولا ثبات عمر وصلابته لطارت عنى خلافة الله فى الناس ! !

فانبرى رجاء يقول : وقد كانَ فى ولايته على المدينة مثالَ العدل والرحمة، وكثيراً ما لجأ إليه الهاربون من بطش الحجاج فأطعمهم من جوع وآمنهم من خوف ، وقد اصطفى لأول عهده بالولاية عشرةً من العلماء الورعين فجعلهم مستشاريه ! فكانوا عضده القوى على الإصلاح ! ! ورجلٌ يفعل ذلك فى إمارته الصغيرة ، لابد أن يأتى منه الخير الكثير إذا استخلفه الله فى الناس..

فقال سليمان فى هدوء .

لقد استجبتُ إليك يا رجاء فاكتبْ عهدى إلى عمر ، ثم إلى يزيد من بعده ، ومُر الناس أن يبايعوا من نصصتُ عليه فى كتابى دون أن يعلَموا من يكون ، وكانت فرصةٌ سانحة اهتبلها رجاء فصدع بما أمر وبايع الناس .

— ٢ —

كان عمر جالسا فى بيته ، لا يتطرق إلى ذهنه أنه أصبح قاب قوسين أو أدنى من إمارة المؤمنين فسمع الطرق على بابه ملحا عاجلا فخرج يقابل الوافدين فى هدوء ! فلقى من ينعون إليه سليمان بن عبد الملك ثم يبشرونه بإمارة المؤمنين .

لم تكسُ البشاشة وجه الخليفة الجديد بل امتقع لونه امتقاعا مُغبّرا ، ونظر إلى الأرض فى صمت ! وجعل يهز رأسه كالحائر اللهيف .

فصاح رجاء بن حيوة ! ما بالُ أمير المؤمنين !

فرفع عمر رأسه وقال والله ما طلبتُ هذا الأمر قط ! ولوددتُ أن يبقى

ويليه بعد المشرقين فقال رجاء فى صراحة : أنت أحقُّ به من سواك ! وقد شرفك الله به فهلمّ إلى الناس فنظر عمر إلى صاحبه وقال فى دعة ، مثلك يا رجاء فى علمه وجلاله يعلم أن الفقير الجائع ، والمريض الضائع ، والمظلوم المقهور والشيخ الكبير فى أقطار الأرض وأطراف البلاد ! كل واحد من أولئك غريمى ومخاصمى يوم القيامة !! له حقٌّ علىّ غير كاتب إلىّ فيه ، ولا طالبه منى فكيف لى بهؤلاء !!

فصاح رجاء فى اعتداد قم يا أمير المؤمنين إلى المنبر فالناس ينتظرون !! ...

سار عمر إلى ما أراده الله له ، فخطب الناسَ خطبة أوضحتْ منهاجه ، وفصلت طريقته ! فخرجوا يتفاءلون بعهده ويتحدثون عما ينتظرهم من رحمة وإحسان !! فلما همّ بالذهاب إلى قصر الخلافة رأى مراكب فخمة تظهر عليها الجدة المونقة وقد هُيِّئتْ لتندرج فى موكبه على وضع محددّ معلوم فالتفت إلى خادمه مزاحم وسأل ما بال هذه المراكب ؟

فقال كبير حراس الخلافة ، هذه مراكب جديدة لم تُركبَ قط ، يمتطيها الخليفة الجديد أول ما يركب ! وهى تتهيأ من ساعة ميلادها لمثل هذا اليوم الشهير .

فعبسَ عمر عبسة معبرة وصاح بغلامه مزاحم !!

يا غلام ضمّ هذه المطايا إلى بيت مال المسلمين .

وركب الخليفة بغلته المعتادة ، ورمى ببصره إلى ما أمامه ، فوجد سرادقات تزدان بالأثاث الباهر من نمارق وأرائك ووسائد ! فسأل فى دهشة ما هذا ؟ فقال كبير الحراس وتلك سرادقات حديثة لم يجلسْ فيها أحد وقد أعدّت لاستقبال أمير المؤمنين ، فنظر عمرُ مدهوشا عن يمينه وعن خلفه ، وفى عينيه

استنكار صارخ لما يلحظ ثم قال لغلامه مزاحم ! وهذه أيضا ضمّها إلى بيت مال المسلمين ! !

وما أخذ مقعده فى مجلس الخلافة فى القصر حتى جاءه أولاد سليمان ابن عبد الملك ومن خلفهم أثقال باهظة من الثياب المطرزة بالحرير ، والقوارير المفعمة بالطيب ، وقد قسموا الأحمال ثم قالوا هذا لنا ، وهذا لك ، فسأل الخليفة عما يشهد ! فقال رجاء بن حيوة يا أمير المؤمنين لقد جرت تقاليد بيتك — ولعلك تدرى — أن ثياب الخليفة الراحل وأدوات زينته وأبهته ينظر فيها بعد موته ! فما لبسه ولو مرة واحدة أو شم منه ولو شيئاً يسيراً فهو لورثته ، وما لم يمسُ من الطيب والثياب فهو للخليفة الجديد .

وقال عمر يا سبحان الله ليس لى منها شىء ! ولا لورثة سليمان ! يا مزاحم ردها جميعها إلى بيت مال المسلمين . . وانصرف أبناء الخليفة الفقيد صفر الأيدى واجمين .

— ٣ —

وكما فوجىء عمر بالخلافة فوجئت بها زوجته وابنة عمه إذا كانت فاطمة بنت عبد الملك ، جالسة فى بيتها لا تؤمل أن تصبح قريباً زوجة أمير المؤمنين ، وصاحب الأمر فى الناس ! ! فأتتها الأنباء العاجلة تعلن أن الخلافة قد انتقلت إلى زوجها الحبيب ، وأحست فى أعماقها فرحة هادئة !! إذ أن الخليفة الراحل أخوها وابن أبيها ، ولابد أن يطوف بها ملم من الأسى حين تذكر أن أغصان دوحتها العالية التى أنبتها والدها عبد الملك تتساقط شيئا فشيئا !! وتهب عليها الرياح القاصفة بين الحين والحين . . ثم أخذت تعقد موازنة حائرة بين الأخ والزوج ! ولكنها رجحت كفة الزوج فجأة حين تذكرت أخاها الوليد ! ذلك

الذى لم يرْع لها حرمة الدم ووشيجة الندى ، فرفض رجاءها ، وأهان وفادتها حين خفت إليه ترجوه أن يخفف قليلا من اضطهاد زوجها عمر من ناحية ، وأخيها سليمان من ناحية أخرى ، فما رجعت بغير الخيبة والخذلان . . إن أخاها مهما حمل اسم أبيها مِلْكٌ لغيرها من الأناث فهى تصرف أمره وتملى عليه تحت ستار شفاف لا يراه بعينيه ، ولكن تأثيره يظهر فى تصرفه واتجاهه!! أما زوجها عمر فهى التى ستصرفه وتوحى إليه بكل مايريد ، ولم تكد تسترسل فى أحلامها المقبلة ، حتى وجدت نساء أمية يفدن إلى بيتها يسارعن إلى تهنئتها ويحطن بها حفاوة وإكبار ، ويبدين من التزلف والإطراء ما ذاقت به طعم الرئاسة ، والسلطان بعد أن أفتقدته طويلا منذ كان والدها المظيم على ظهر الحياة ! !

وقد طاف بها طائف التيه ! فعرفت أنها من الآن أصبحت شيئاً آخر غير الذى كان ، وأن مَنْ فى الدولة العربية من العقائل والكريمات سيتوجهن إلى قبلتها ، وسيلتمسن هديها ، وسيقلدن عن تطلع خالب ما تلبس من زينة ، وما ترضى من لباس !! وقد غصت الدار بمن وفد إليها من بنات العم والخال فما تستطيع لكثرة من تشاهد أن تنتقل من مكان إلى مكان !! حتى إذا قضين حق التهنئة والتحبب أخذن ينصرفن فى تودد آمل ولم يبق غير القليلات ممن رُفعت بينهن الكلفة الشديدة وبين سيدة البيت ، فلسن ممن يثقل عليها أن يمتد بهن الزمان على التلبث والمقام ، وما مضت ساعات قليلة حتى جاء الخليفة يزور زوجته ، وطاف بعينيه الملهمتين فى وجوه صواحبها ، فعلم ما تخفى النفوس من مآرب ! وما تتطلع إليه المهج من آمال . . . وأراد أن يقطع الطريق أمام من يظنّ أن بيت المال مورد للهبة الجزيلة والأعطيات المترفة ! وإنما هو حق المسلمين فى المشارق والمغارب ، فليس لعين طامعة أن تمتد إلى

نشبه وذخائره !! فجلس يتزين فى لطف ، ونادى فاطمة زوجته ! فأسرعت إليه على عجل حيث فاجأها بقوله :

أين ثوب زفافك الحريرى المرصع ! فابتسمت إبتسامة المتعجب ! وقالت : ولم يا أمير المؤمنين ، فواصل سؤاله يقول : أأنا أحب إليك أم ثوب الزفاف ؟ فتعجبت كثيراً لمقارنة بعيدة غير متقاربة ، وتعجبت صاحباتها مما تعجباً ذهب بهن إلى الدهشة والاستغراب ! ولكن فاطمة قالت فى ارتباك مأخوذ : أنت يا أمير المؤمنين أحب إلىّ من كل شىء فى الحياة !!

فابتسم عمر وقال : إذن علىّ بثوب الزفاف لأدعه فى مكانه اللائق ...

فدهشن الحاضرات أكثر من ذى قبل ، وسألت فاطمة فى ابتسام مصطنع ! وأين المكان اللائق به يا أمير المؤمنين ؟ فبادرها الخليفة بقوله بيت مال المسلمين يا فاطمة ، فإن قيمته الثمينة لم تكن من ثروة عمى ، ولكنها كانت من طعام الجائع ومال اليتيم !!

فأطرقت فاطمة لحظة ثم انصرفت إلى حجرتها القريبة ، وأحضرت الثوب فأعطته للخليفة ، وخرج به إلى حيث أودعه مكانه الجديد !!

وتطلعت العيون إلى العيون ، وهمت الشفاة أن تنطق بعد احتباس !! ولكن روعة المفاجأة قد حبست الألسنة وقتاً طويلا ، حتى نهضت إحدى عمّات عمر ، وقالت فى جراءة « هو حر مع زوجته ! ولكنى سأعرض عليه مطلبى اليسير » .

قالت فاطمة فى بسالة ساذجة ! هو ذا قريب منك فاذهبى إليه كما تشائين ..!

ولم تكن صاحبة المطمع أن تسمع ذلك حتى فارقت صواحبها وانطلقت إلى أمير المؤمنين ، فحيته فى دعابة ، وقالت متضاحكة : أنت حر مع زوجتك

يا عمر !! ولكن عمتك تريد حقها العريض ، فنظر عمر إليها فى أدب وقال : أى حق يا عمتاه ! !

فقالت فى صوت مرتفع ! ما كنت آخذه من عبد الملك والوليد وسليمان !

وكم كنت تأخذين ؟ عشرة آلاف دينار كل عام ! !

فنظر عمر إليها نظرة مستنكرة وقال فى حزم ! لقد جاع الفقير ، ومات المريض يا عمتاه لما تأخذين من مال الله ! ! سأعطيك والله كما أعطى نفسى . . أو تقبلين ؟

فقالت فى غضب ! وكم عطاؤك يا بنى ! !

فقال عمر : عطائى ما يمسك رمقى ! فأنا آكل الخبز وألبس الخشن ! وأشرب الماء فرمقته فى تحد ساخط وقالت كلْ ما تشاء ! وسفا كل ما نشتهى دون حاجة إليك ! ولن نعرف بيتك يا ابن عبد العزيز . . . !! وخرجت إلى صاحباتها عابسة تصخب وتلوم .

لقد عرف أمير المؤمنين أن عدله فى بيت المال يثير عليه خصومات أقاربه! ويهيج حقود بنى أعمامه وأجداده ففكر وقدّر ثم عزم على أن يسير سيرة الراشدين دون تحيّز إلى قريب أو نسيب ! ! ولم يكد يبرح مكانه حتى استأذن عليه رجل من أهل حمص يخاصم روح بن الوليد بن عبد الملك فى ضيعة اغتصبها الوليد من أسرته فدعا أمير المؤمنين روح بن الوليد وقال له أردد عليه ضيعته! فقال روح فى عناد : هى معى بسجلّ الوليد ، فنظر أمير المؤمنين إليه غاضبا وقال : وما يغنيك سجل الوليد وقد قامت البيّنة على أن الضيعة للرجل ! خلّها لصاحبها يا صاح فقام روح غاضبا وأخذ يتوعّد الحمصىّ فى الطريق ! وجاء النبأ إلى عمر فأرسل كعب بن حامد حارسه وأمره أن يجبر روحا على تسليم

الضيعة فإذا عصى جاء برأسه ، فلما لمس روح الجدّ فى كعب سلّم الضيعة ساخطا ناقما ، متبرما كيا لدى قرابته وذويه .

— ٤ —

وخلا عمر إلى رجاء بن حيوة مستشاره وصاحب سره ! فقال يا رجاء لقد تكالب القوم من بنى أبينا وعمومتنا على زهرة الدنيا وطمعوا فى بيت المال ! وقد ألزمتهم ما ألزمت به نفسى فورمت أنوف والتهبت أكباد ! فبم تشير . . . ؟

ففكر رجاء مليا ! وقال لقد تعودوا النعيم ، فلا تحرمهم منه جملة يا أمير المؤمنين .

فقال عمر : لقد خالفت نفسى ومنحتهم جميعاً عشرة آلاف دينار من بيت مال المسلمين فلم تشف غليلا فى صدورهم فماذا أصنع ؟

فقال رجاء أعذرتَ إذن أمير المؤمنين !

فعضّ عمر على يده وقال : قد والله لحقنى من الندم ما أكل الكبد ولاع الجفان !! ولو استطعت أن أردّها يا رجاء لفعلت !! إنها لو قسمت بالسوية لكفت مؤونة أربعة آلاف بيت من المسلمين !! ثم سكت الصديقان لحظة ذهب فيهما تفكيرهما كل مذهب !! حتى دخل كعب بن حامد ، فقال مبتسما : شعراء الدولة بالباب يهنئون أمير المؤمنين بالخلافة ، ويجمعون حولهم الناس ! فقلب عمر كفيه : وقال بعد زفرة طويلة : لم نكد نفرغ من بنى مروان حتى قدم علىّ المداحون !! ابتسم رجاء فى أدب ، وقال ملاطفا : وما فى ذلك يا أمير المؤمنين لقد مدح كعب رسول الله وأجازه ومدح الحطيئة عمر وأجازه ، أليس لك قدوة فى هذين .

فنظر عمر إلى رجاء كالحتقد وقال فى صياح أين ذهب عنك رشادك يا ابن حيوة ؟ لقد كان الرسول يعطى اليسير فيبلغ الرضا ، وكان عمر كذلك يعطى فى غير إسراف ، ولكن بنى أمية قد عوّدوا الشعراء عادات باهظة فقطعوا ألسنتهم بالبدر والذخائر يغتصبونها من دماء المسلمين ! فتراجع رجاء فى تسليم واعتراف ! وقال يا أمير المؤمنين وفقك الله فأنت أدرى الناس بالناس ! وعليك أن تعطى ولا تمنع ! قليلا كان عطاؤك أم كثيرا ، وإلا اتهمك الناس بمعاداة الأدب وأرجف بك الشعراء فى كل مكان ! !

فقال عمر فى حدة : أوَ أصغى للناس يا رجاء . . ! ! دعهم يقولوا ما يشاءون علم الله أنى أحب من الشعر ما جاء كمذهب ابن الخطاب ! فقد كان رحمه الله يطرب لشعر الحكمة ، ويفضل زهير بن أبى سلمى لنصحه وتوجيهه ! وأين فيمن يقفون على بابنا اليوم مثل زهير الحكيم !! وكلهم مقذع هجاء مجترىء مسراف !

فسأل رجاء متلطفا ومن على بابك منهم يا أمير المؤمنين ؟

فصفق عمر بيده فجاء صاحب بابه كعب بن حامد ! ! وأعلن أن بالباب الفرزدق وعمر بن أبى ربيعة ! وكثير عزة والأحوص . وجرير بن عطية .

فقال عمر : ليس فيهم غير جرير !! امنعهم جميعاً سواء . .

فدهش رجاء ! وقال كلا يا أمير المؤمنين كلهم شعراء موهوبون !

فابتسم عمر وقال كأنك يا رجاء لم تفطن إلى مقياس الشاعرية لدى ! إن مقياس الشاعرية عندى ألا تغضب الله !! وهؤلاء قد أغضبوه !!

فتبسم رجاء وقال متضاحكا وما أغضبك من شعر ابن عمك عمر بن أبى ربيعة وهو ذو قرابة ووداد . . ! ! فقال عمر فى جد : لا قرّب الله قرابته ولا حيا وجهه أليس هو القائل :

ألا ليت أنى يوم حانت منيتى ... شممت الذى ما بين عينيك والفم
وليت سليمى فى القبـور ضجيعتى ... هنـالك أو فى جنـة أو جهنم

فليته تمنى لقاءها فى الدنيا لا فى جهنم وعمل عملا صالحا ، والله لا دخل علىّ أبداً ، فأسرع رجاء يقول، وكأنه يستدرج الخليفة إلى الحديث عن الشعراء هذا عمر !! فماذا أغضبك من شعر كثير ؟ فأجاب عمر ! أنسيت أنى كنت والى المدينة ، وكان شعره مع صاحبه الأحوص يأتى إلىّ صباح مساء ! أليس هو الذى يقول :

رهبـان مدين والذين عهدتهم ... يبكون من حذر العذاب قعودا
لو يسمعون كما سمعت حديثهـا ... خروا لعـزة ركعـا وسجـودا

أعزب به ، فقبحه الله وقبح خياله الأثيم !

فنظر رجاء إلى الخليفة متأملا ، وقال أسمعتنى ما نقمت من شعر كثير فماذا نقمت من شعر الأحوص حفظك الله فقال عمر ، أبعده الله ، أليس هو القائل ، وقد أفسد على رجل من أهل المدينة جاريته .

الله بينى وبين سيـدها ... يفرّ عنى بها واتّبع ! !

وقد كدت أقطع لسانه بالمدينة لولا ما أظهره أمامى من التوبة الكذوب .
فقال رجاء : أنت والله راوية يا أمير المؤمنين !! فماذا نقمت من الفرزدق ؟
فأجاب عمر مغبرما ومن الذى لا ينكر مجاهرته بالفحشاء ، وفخره بالزنا إذ يقول :

هما دلتـانى من ثمـانين قامـة ... كما انقض بازأقتم الريش كاسره
فلما استوت رجلاى فى الأرض قالتا ... أحىٌّ فيرجى أم قتيل نحاذره
فقلت ارفعوا الأمراس لا يشعروا بنا ... ووليت فى أعقاب ليل أبادره

أعزبْ به فوالله لا وطىء بساطنا أبداً . .

فواصل رجاء سؤاله فقال يستدرج أمير المؤمنين ! هؤلاء هم المغضوب عليهم من الشعراء فماذا أعجبك من جرير ؟

فقال عمر فى هدوء : إن جريرا فى غزل عفيف شريف وله حنين صادق أمين اسمع قوله :

ذم المنازل بعد منزلة النوى　　والعيش بعد أولئك الأيام
طرقتك صائدة القلوب وليس ذا　　وقت الزيارة فارجعى بسلام

ثم ابتسم وصفق بيده فدخل كعب ، فقال أمير المؤمنين هذا وقت زيارة جرير ، فادخله بسلام يا كعب ! . . . دخل الشاعر وحده دون أحد من رهطه المتزاحمين ، فأعجبه أن يكون الفريد المختار ولما مثل بين يدى عمر وهم بانشاد قال له فى أدب : اتق الله يا جرير ولا تقل إلا حقا ، فقال جرير هو ذاك يا أمير المؤمنين واندفع ينشد :

أنا لنرجو إذا ما الغيث أخلفنا　　من الخليفة ما نرجو من المطر
جاء الخلافة أو كانت له قدرا　　كما أتى ربه موسى على قدر

فقال عمر أسرفتَ يا جرير كفى قد والله وليتُ هذا الأمر وما أملك إلا ثلثمائة درهم من المال فمائة أخذها عبد الله، ومائة أخذتها أم عبد الله ياغلام أعطه المائة الباقية فبغت جرير ، ولكنه كتم انفعاله ، وعجّل يقول هى والله أحب مال كسبته فى الحياة يا أمير المؤمنين ! ! وخرج الشاعر فبحث الشعراء عما فى يده فى لهفة فرأوا مائة درهم لا تزيد ! فتفرقوا مسرعين، ثم حان وقت الصلاة فاندفع رجاء وعمر يصليان ! !

علوى ثائر

جلس هشام بن عبد الملك فى خاصة بنى أمية يتحدث عن شئون الخلافة ، وأمور الحكم ، ثم قال مزهواً لمستمعيه : لقد اطمأنت بى وسائل الأمن فما أخاف ثائراً يهب ، أو مشاغباً ينهض ، وقد جعلت على الولاة عيونا وأرصاداً فى كل فج فما تلبث أن تأتينى الأنباء عنهم بما يخفون وما يعلنون ! ! على أننى قلق لهذه البلدة التى تجمع نسل أبى تراب ، وتضم إليهم من سخف عقله ! واضطرب هواه فأنا منها فى جهد حائر ، وقلق أكيد ، وسيقدم الآن أميرها خالد بن عبد الملك بن الحرث ، لأستطلع ما عنده من الأنباء ، وعليكم أن تشتركوا معى فى الأمر اشتراكا بصيراً لأتبيّن مواضع السداد ، فأعرف ما يرأب الصدع ويسد الفتوق .

قال قائل ممن يستمعون : إن الولاة يا أمير المؤمنين لا يتحدثون إليك عن الواقع الصريح فكل أمير على مدينته يدعى أنه وطد الأمن وأزال الخلاف ، وأن إمارته حصن سابغ تلوذ به الخلافة ، ومعقل مصون يدرأ الفتن والأعاصير ! فكيف يصدقك خالد بن عبد الملك الحديث ! !

فأجاب هشام فى ثقة : لقد خبرت خالداً ، فهو يراسلنى بما يقع أمامه عن صدق وأمانة ، إذ أن عيونى عليه يبعثون إلىّ بمثل ما يبعث من الأنباء ! فلو كان الرجل مداهنا خادعاً ، لانكشفت رسائله عن المداهنة والخداع . . ولعلكم تعرفون أننى كنت قبل الخلافة والياً على المدينة فأنا بها أدرى وأعلم ولن يستطيع وال ما أن يخفى عنى شيئاً لمسته بيدى ! !

فقال بعض الجلساء : وماذا يقول خالد فى رسائله لأمير المؤمنين ؟ !

فقال هشام : إنه يتحدث بمرارة عن آل الحسن وآل الحسين ، وسأحضره إليكم الآن فهو على بابى من الصباح ينتظر الإذن .. وسأناقشه مناقشة دقيقة !! لتفهموا عنه ما تريدون .. ثم صفق بيده وأمر حاجبه بدعوة خالد . فأتى على عجل وأخذ مكانه فى أدب ووقور بين المجتمعين ..

قال هشام ـ فى تودّد ـ لقد كلفناك صعباً حين دعوناك إلينا من المدينة ، فتجشمت مرهقات السفر فى قيظ محرق وطريق عسير .

فابتسم خالد بن عبد الملك متشجعا ثم قال فى ملاطفة لو أمرنى أمير المؤمنين أن أصعد إلى السماء لحاولت ! فـكل أمره حبيب أثير .

فنظر الخليفة إلى وجوه القوم لحظة ، ثم توجه إلى خالد يسأله ، وماذا تحمل إلينا من الأنباء !! لعلك تصدقنى الحديث .

فرد خالد بلهجه حازمة وقال أيد الله أمير المؤمنين ، فإن كرمه قد شمل المسلمين فما يستطيع أحد أن يتخلى عن طاعته وهيبته .. وإن المدينة كلها رقاب منقاده ورؤوس مطرقة ، ومن يضمر الـكراهية من آل تراب لا يستطيع أن يعلن ، فأنا من ورائهم أسترق السمع ، وأقطع الطريق ! !

قال هشام : لقد جاءتنى الأنباء عن يقظتك ووفائك يا خالد ! ! ولـكنى أريد تفصيلا وافياً عما تقوم به إزاء هؤلاء ... ومعى فى المجلس صفوة أحبابى وخيرة أعوانى ، وهم لابد منصتون متأملون ! فأجلُ النقابَ عن كل خافية مستترة ، لنصل إلى علاج سديد فتأمل خالد وجوه الحاضرين كمن يحاول أن يستشف بالنظرة المتثبتة ما تمور به الخوالج المقنعة من أحاسيس ثم قال على مهل وعينهُ إلى هشام :

إن الناس بالمدينة يكنوّن لآل أبى تراب حبا صادقا ، ويبدون لنا طاعة

ظاهرة ، فرقابهم تحت أيدينا ، ولكن قلوبهم ليست فى قبضتنا ، وأنا أعاملهم على هذا الاعتبار .. فأبذل الجهد المتيقظ فى تكبيل الألسنة ، وإغضاء العيون.

فرد هشام فى يقظة : لو قلتَ غير ذلك لكذبتك وبادرتُ بعزلك ، فقد كنت – من قبل – واليا على المدينة وشاهدت من وفاء أهلها لآل أبى تراب ما أدهش تفكيرى ، وأثار حيرتى ، وما كنت بمستطيع أن أحول الوفاء إلى بغضاء ، بل كنت أحاصر النار فى مندلعها المشبوب كيلا تمتد إلى مكان آخر ، فتعمّ الشكية ويسوء المصير .

فقال يوسف بن عمر الثقفى وكان من الحاضرين : إن الحال كما أرى قد تبدل يا أمير المؤمنين فقد كنتُ واليا على المدينة إذ كان بها على زين العابدين ابن الحسين ، وهو بقية السيف من موقعة كربلاء من أبناء الحسين وكان فى عبادته وأخلاقه مضرب المثل بين الناس ، فكان المدنيون يحبونه لذاته ويعتصمون به اعتصاما قويا .. أما الآن فقد مات على فتفرق الناس عن شيعته، ولم يجدوا منه بديلا يحتل مكانته ذات الهيبة والجلال ...

فقال هشام موافقا : لقد أرقنى علىّ هذا ، وأطار النوم من عينى ، فكنت أراه بالمسجد يؤم الناس فإذا فرغ من صلاته أكبوا على يده تقبيلا ، وإذا خاطبه أحد انحنى أمامه عن حب وشغف لا عن هيبة وارهاب ، وإذا سار فى طريق تجمع الناس يفسحون له المكان ، وتلمس العامة ثواب الله فى اقتفاء خطواته ، وتأمل وجهه البسام !! ولن أنسى أننى ذهبت إلى مكة ذات عام للطواف حول البيت فرأيت من ازدحام الناس ما أوقفنى عن الطواف ، فبحثت عن كرسى انتظر عليه حتى يهدأ الناس ، وشخصت ببصرى لحظة فوجدت الزحام ينفرج فجأة وقد تدافع الحاضرون عن أمام وعن خلف يفسحون

الطريق ! فنظرت فإذا على زين العابدين يقدم للطواف ووراءه أفواج العامة يتبركون بظله ! فقلت من هـذا كالمتجاهل ؟ فسمعت من يقول مرتجلا دون أناة :

هذا الذى تعرف البطحاء وطأتهُ والبيت يعرفه والحل والحرم
هذا ابنُ خير عباد الله كلهم هذا التقى النقى الطاهر العلم
إذا رأته قريش قال قائلها إلى مكارم هـذا ينتهى الكرم

فأطرقتُ عابساً ، وقد ذاع الشعر كالبرق ورواه جميع الناس !! فما رأيك يا خالد ؟ ! فنظر الوالى نظرة مهذبة ، ثم قال : لقد حكى يوسف بن عمر أن عليا زين العابدين قد مات ولم يترك بديلا يحتل مكانته فى الناس ، ولكنى أعرف عن يقين أنه ترك بديلا قويا ورث عنه هيبته وإجلاله !! ذلكم هو زيد بن على زين العابدين !

فهز هشام رأسه ! وقال فى تأوه : زيد بن على ! لقد أتتنى عنه الأنباء ، فكيف تراه !

قال خالد : يا أمير المؤمنين لقد رزق هذا الشاب فصاحة نادرة لم أرها فى إنسان ، وقد سمعته يناقش الفقهاء فى حلقاتهم الدراسية فوجدتهم ينقطعون أمامه فما يقدرون على مباراته ، فإذا جلس مجلس الوعظ تشقّق لسانه عن نبع سلسال وافق تهيم به الأسماع !! أما إذا سار فى الطريق فلن أجد وصفا لجلاله وهيبته غير ما حكاه أمير المؤمنين عن والده على زين العابدين ، لأن الناس هم الناس !!

فقال يوسف بن عمر : ولم تركت الناس يتحلقون حوله فى المسجد، ويسيرون وراءه فى كل مكان دون أن تأخذ عليهم السبيل !!

فقال هشام فى سرعة : صه يا يوسف ! لقد حاولتُ ذلك مع على فلم أستطع، كنت أتهدد الناس ، وآخذهم بالوعيد حتى أظن أنهم قد امتنعوا عن على ثم أنظر فإذا الكثرة الكاثرة تتزاحم على مجلسه ، وتتكالب على طريقه ! وقد ذهب الوعيد هباء دون خوف واكتراث ! !

فنظر أحد الحاضرين طويلا إلى خالد ثم سأله فى أدب : أتستطيع أن تصف زيدا كأنى أراه ... فابتسم هشام وقال : كنت أريد أن أقول هذا السؤال ، فأجب يا خالد دون إمهال !! فقال الوالى فى جد واهتمام : هو يا أمير المؤمنين شاب قوى يبدو كفارس فى ميدان ، ويضىء وجهه بالنور كأن قمرا يلوح ، وله لحية سوداء تكسوه جلالا ورونقا ، فإذا سار وجدت إنسانا وسطا لا إلى القصر أو الطول !! ولا إلى السمنة أو الهزال . . . أما إذا سمعت فصوت ممتلىء رنان !! وحديث مؤثر خلاب !! وهو يقرأ القرآن بقراءة أثرت عنه ، ويقول أنه أخذها عن أبيه ، وقد افتتن بها المدنيون فلا يقرءون بغيرها القرآن ... بل إنهم يتناقلون كلماته وعباراته ، ففى كل يوم يتحدثون ، قال زيد كذا بالأمس ، وقال زيد كذا اليوم !! حتى حرتُ ماذا أصنع ، وقد ضاع ما بذلت من الجهود .

فاعتدل يوسف بن عمر الثقفى وقال فى اعتداد : أتحدثنا — بإذن أمير المؤمنين — عن بعض ما أتيته فى إرهاق زيد ، وإهانة شيعته ، لنعلم بعض ما كان ؟ فقال هشام لخالد : قد أذنت فأوجبْ بما تراه !

فأطرق الوالى قليلا كأنه يجمعُ خواطره ، ثم رفع رأسه ، وقال فى ثبات : علمتُ ذات يوم أن خصاما عنيفاً نشب بين زيد بن على بن الحسين وابن عمه جعفر بن الحسن بن الحسن ، وقد شاع خبرهُ فى المدينة ، فأدرتُ أن أشعل الفتنة ليزيد بينهما السباب واللغو ، فينخفض قدرهما فى الناس !! فأحضرتهما

على الملأ قريبا من المسجد ، وقلت لجعفر ما تقول فى ابن عمك زيد ، فبدأ ينتقص ويغلظ القول ، فأسرع زيد يقول لابن عمه ـ وقد تنبّه إلى ما أريد ـ لا تعجل ، يا أبا محمد ، اعتقَ زيد ما يملك إنْ خصمك إلى خالد أمير المدينة ، ثم انسحب من مجلسه وقال يخاطبنى ! أجمعتَ ذرية رسول الله لأمر ما كان يجمعهم عليه أبو بكر وعمر بن الخطاب !! فأغريتُ به أحـد صفائعى من آل عمرو بن حزم ! فسبّه بأمه وأبيه !! ولـكن الناس صاحوا به : اسكت قطع الله لسانك وأخذ بعضهم كفا من حصباء ورمى بها فى وجهه ! فأطرقَ على خزى مشين !! ثم انتهى المجلس بين نظرات الشامتين وصيحات الغاضبين !

قال أحد الحاضرين : ألا تستطيع أن تعارض زيدا فى علمه ووعظه ، فتأتى بفقيه من الشام أو العراق تصطنعه ليقعد له فى مجلسه مقعد المخالف المنابذ فينصرف الناس عنه إلى حين !!

فقال هشام : لا يا قوم ! نريد حلاً عمليا . فالرجل فقيهٌ بصير روى عن أبيه وعن جده !! وقد أشرب المسلمون تصديق ما يقول دون نزاع ، فلو عارضه أحد العلماء ما استمع إليه فى شىء ، ولباء لأول مجلس بالخذلان والـكنود . . !

فقال خالد فى أدب : ومَنْ يعارض زيدا فى عمـله ! إن واصل بن عطاء ، وجعفر بن الصادق ، وأبا حنيفة فقيه العراق ، وغيرهم من فقهاء الملة يتعبدون بآرائه ، ويفتون باتباعه !! ولن يستطيع الوالى أن يضع قدر رجل يبجله الأئمة من الفقهاء والمحدثين .

قالَ هشام : هذا كلام سديد ياخالد ، فلتبحثوا جميعا معه إذن عن حل مفيد . فتطلع خالد بن عبد الملك إلى هشام كمن يهم بالحديث ، فأدرك الخليفة ما فى نفسه ، وقال فى هدوء : أرى على شفتيك كلاما !! فقل ما عن لك من الرأى .

فقال خالد بن عبد الملك : لقد علمتُ من أهل المدينة أن والد زيد كان لا يبرحها إلى بلدة من البلدان غير مكة فى موسم الحج ، ولكنى أشاهد زيد ابن على يؤم البلدان النائية ، فيقصد العراق والكوفة ، وبعض ديار الشام ! ! وإنه ليقابل الولاة فى كل مكان يحل به ، فيخدعهم عن قصده السياسى ويتظاهر بالفقه والحديث، وقد قيل لى أن خالد بن عبد الله القسرى قد استضافه وأودع لديه كثيراً من الأموال ، وأن له بالكوفة لأنصارا من الشيعة ، وبقية ممن آلمهم مصرع الحسين فهم يتمسكون بأمامته ويرون فيه رجل الموقف ، وسيد الجماعة ! ! وهأنذا أدلى إليكم بجميع ما تطرق إلى أن صدقا وإن كذبا ، وعليكم أن تميزوا الباطل من الحق ، وتضعوا الخطة السديدة فى وضوح :

فقال هشام : لقد سرنى من خالد إخلاصه وثباته ، وأعجبتنى صراحته الجريئة التى يتحاشاها كثير من الولاة ، فرارا من التبعة ورياء آثما لصاحب الأمر ، وإنى لأثبته فى مكانه بالمدينة آملا أن يبذل ما أعهده لديه من حيلة وكياسة ليهدم كل مقطلع متوثب عامل على تأليب الثوائر وتأريث الأضغان!! فقال قائل يوجه حديثه إلى الخليفة: وماذا يصنع أمير المؤمنين فى خالد القسرى، وقد صادق وحالف المتربصين ؟

فقال هشام : لا أظن ما نقل عن خالد القسرى صحيحا معقولا ، لأنه يعلن آل أبى تراب جهرة على منابر العراق كل أسبوع ! فكيف يسدى إليهم مال الخلافة وينتقصهم ويزدريهم أمام الناس ! !

فقال يوسف بن عمر الثقفى يستدرك على هشام : يا أمير المؤمنين لا تعارُض بين الناحيتين ، لأنه حين يعلن آل أبى تراب يعبر عن رأى الخلافة ، ولكن حينما يسدى إليهم . . . يعبر عن ولائه وحبه وما نستطيع أن نبرئه من هوى القوم دون شاهد أكيد فلتحسم الشك باليقين .

فأطرق أمير المؤمنين بضع لحظات .. ثم نظر فى وجوه القوم قائلا : لقد عزلت خالداً عن العراق دفعا للشبهة فقط ، ووليت مكانه يوسف بن عمر ليسد فى إمارته مسدا لن يبلغه سواه أما خالد بن عبد الملك فقد ثبته على المدينة واثقا كل الثقة فى كفايته وإخلاصه ! !

ثم نهض الخليفة ليقوم فأدرك الحاضرون رغبته فى انتهاء الحديث فأسرعوا متسللين .

— ٢ —

سار يوسف بن عمر الثقفى إلى العراق وجعل يتحسس خطوات زيد فيسأل متى كان بالكوفة ومتى رحل إلى البصرة وعند مَن كان يلقى برحاله فى الغدو والرواح !! ثم أخذ يدوّن أسماء من يعرف عنهم حبا متوارثا لعلىّ وشيعته ! ويزيد فيفاجئهم فى منازلهم متسللا مفتشا ، حتى ألمّ بكثير من مواقف زيد ، وعرف عن يقين ما كان يتناقل فى مجالسه الخاصة من دعوة صريحة إلى إمامة عادلة رشيدة تهتدى بهدى الكتاب ، وتأمر راشدة بالمعروف وتنهى عن المنكر ، وقد نصب يوسف أرصاده فى مناحى العراق ، وأقام العيون بين المدينة والكوفة لتأتيه بأخبار زيد فى ترحاله وحله ، حتى علم ذات صباح بقدومه إلى الكوفة ، نخف إليه فى بطش ، وأغلظ له القول فى مهانة وغطرسة ، وزيد يُجيبه إجابة مسكنة تزيد من غضبه وتؤجج الضغينة فى فؤاده ، ثم زاد فاتهمه باحراز مال كثير عن طريق خالد القسرى ، وواجهه بخالد وكان فى محبسه ، فأنكر الرجلان فى تصميم حاسم ما ادعاه يوسف .. فما ازداد إلا لجاجا وعتوا فى طغيانه .. وشاء زيد أن يضع حدا لهذا الوالى المتهور فرحل إلى دمشق ليطلع هشاما على ما يقوم به من إرهاب شنيع .. وكان زيد يظن أن هشاما

سيستمع إليه كصاحب ظلامة ينتصر لنفسه بعد اعتداء غاشم ! ! ولا ندرى لماذا نسى هذا الألمعى الحصيف أنه يستجير من الرمضاء بالنار ، وأن يوسف يستمد جبروته من طغيان هشام وعتوه ! ! لعلّه عرف ذلك عن يقين ! ولكنه أراد أن يقنع شيعته بالكوفة وغيرها من مدن الإسلام بدليل ملموس على فساد الحاكم واعتسافه ! يأتيهم به عن مشافهة ومشاهدة فلا يقبل طعنا لطاعن أو تقولا لمحتال . . .

ظل زيد ممنوعا أمام قصر الخلافة بدمشق محجوبا فلا يؤذن له فى المثول ، وهو يرى بعينيه وفود المرائين ومواكب المتزلفين يغدون ويروحون دون حجاب موصد ، أو رتاج يقوم ! حتى إذا ألحف فى الطلب جاءه الإذن المتمنع فدخل ليشهد أمير المؤمنين جهم الوجه بادئ الغضب ، متطاير الشرر ، يقول له فى غطرسة : لقد خدعتْك نفسك يا زيد ، أنت الذى تنازعك نفسك بالخلافة وأنت ابن أمة ! !

ما هذه المواجهة الصاخبة ؟ ! لو كان الذى يخاطبه الخليفة فردا عاديًّا لارتاع فى موقعه ، وطارت الكلمات من لسانه فلا يجد ما يقول ، ولكن زيدا الرصين الفصيح ينظر فى حزم ، ويقول فى رباطة جأش وقوة إيمان :

« اسمعْ يا هشام إنه ليس أحدٌ أولى بالله ولا أرفع درجة عنده من نبى بعثه للناس ! ! وقد كان إسماعيل بن إبراهيم ابن أمة وأخوه ابن حرة صريحة ! ! فاختاره الله وأخرج من ذريته خير البشر ، وما على أحد إذا كان جده رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبوه على بن أبى طالب أن تكون أمة أمة من السند أو من أى مكان ! ! »

فأخذ هشام بما سمع من المنطق المفحم وما قدر أن يجيب . . . وظل حائرا يرمق جالسيه حتى إذا اشتد به الحنق صاح فى غضب : اخرج ، اخرج ! !

فابتسم زيد فى استخفاف وقال : « سأخرج ثم لا أكون إلا حيث تنكره وتضيق ! ! » .

وقد أنجز زيد ما قال فارتحل إلى الكوفة لينادى بالثورة ويدعو الناس إلى مبايعته على الجهاد ، وأعلن لهم خطته فى ردّ المظالم ونصرة الحق وقسمة ألفىء بين أهله على السواء والنصيحة لله فى السر والعلانية فبايعه خمسة عشر ألفا من الكوفة ثم انضم إليهم نفر كثير من واسط والمدن المجاورة حتى بلغ المبايعون أربعين ألفاً ! ! وتحرج الموقف فى دمشق فباتت على شر عظيم ! !

كان العقلاء من آل بيت رسول الله لا يثقون فى أهل الكوفة مثقال ذرة ، فقاموا بنصيحتهم لزيد ، وأخذوا يجادلون بمنطقهم المتحفظ ، وهو يرد عليهم فى ثقة وإيمان ، وقد قال له داود بن على بن عبد الله بن العباس فى بعض نقاشه : يا ابن العم إن هؤلاء يغرونك من نفسك ، وقد خذلوا من كان أعز عليهم منك خذلوا جدك على بن أبى طالب حتى قتل ، وخذلوا جدك الحسين حتى استشهد ، وقد حلفوا لهما أوثق الإيمان كبعض ما حلفوا لك فأين تكون ! !

فقال زيد : لقد كان معاوية يقاتل بدهائه ويزيد يدافع بقوته ! ! والآن لا دهاء ولا تماسك فانسحب داود ولم ينطق !

وجاء سلمة بن كهيل فقال لزيد : رحمك الله كم بايعك من هؤلاء ؟ فقال أربعون ألفا ، فقال سلمة : وكم بايع جدك الحسين ؟ فقال زيد : ثمانون ألفا ، فقال سلمة : وكم بقى معه ؟ فقال زيد : ثلثمائة فقط !! فقال سلمة فى أسف وحيرة : واعجبا أيبقى معك أكثر ممن بقى مع الحسين فلم يصغ زيد إليه !! وواصل العمل دون مبالاة :

وجاء شيعى مخلص من خاصته ، فقال فى أدب : يا ابن رسول الله لم ترد على داود بن على وسلمة بن كهيل ردا شافيا فما قولك ، وقد جادلاك !

فابتسم زيد فى مرارة وقال : والله إنى لأعلم أن أهل الكوفة لا يصدقون فى لقاء !! ولكن العيش فى كنف المذلة دناءة وعار ، وقد شاهدت من طغيان هشام وجبروته ما حبب إلى الاستشهاد فى سبيل الحق ، حتى يقول الناس : لقد أنف قوم من الإذعان للطغيان فلقوا الله شهداء أبرياء !!

فأطرق الشيعى معجبا وقال فى إكبار بالغ : انهض لما تريد جعلنى الله فداءك وسأنشط فى الدعوة إليك عن يقين وإيمان .

كانت الجموع تتزاحم حول راية زيد ، فأنصاره يتزايدون كل يوم ويبدون من الحمية والغيرة ما لا يشك أحد معه فى نجاح الثورة ، وغلبة الناقمين ، إلا أن ذوى الحنكة ممن خبروا رجال الكوفة يرون وراء الستور فتوقا توشك أن تتسع فتتكشف عن بلاء محدق وشر مبيد !

وقد عقد هشام مجلس مشورته بدمشق لينقذ سلطانه مما يتهدده من أخطار !! نعلم أن المال معجزة الانقاذ ، وباب النجاة ، فأخذ يسوقه على الإبل فى قوافل متتابعة لتنثره هناك فى أرباض الكوفة وفوق مشارف العراق ، ثم بالغ فى الخديعة فاستمال فريقا من ذوى الأطماع ، وأمرهم أن يسألوا زيد بن على عن أبى بكر وعمر ليجيب بما يوقع الشقاق فى رهطه فينقسمون عليه وتضعف ريحه فلا يجد ظهيراً يعين !!

لقد نشط زيد بجماعته إلى القتال ، وسار إلى الحومة الحمراء بجنان ثابت ، ونفس متوقدة فوجد نفراً ممن بايعوه ، يعترضون طريقه ويسألون :

ما قولك رحمك الله فى أبى بكر وعمر !

فقال فى سرعة بادهة : غفر الله لهما ما سمعت أحداً من أهل بيتى تبرأ منهما وأنا لا أقول فيهما إلا خيراً .

فقالوا : فلم تطالب إذن بدم أهل البيت ؟

فأجاب فى ثقة : إن أشد ما أقول فيمن ذكرتم أننا كنا أحق بهذا الأمر ولكن القوم استأثروا علينا به ودفعونا عنه وقد عدلوا وعملوا بالسنة والكتاب .

فقالوا فى خبث : ولم تقاتل الأمويين إذن ؟

فقلب زيد كفا على كف وقال يا سبحان الله : أبو بكر وعمر عادلان طاهران وهؤلاء ظلمة آثمون ، فأين الأرض من السماء ؟ !

فانفضوا من حوله منذ سرين ، وقد أشاعوا الفوضى ومالوا إلى الفتنة والإرجاف ، ولكن زيداً لم يتراجع فواجه بالقلة القليلة ممن ثبت معه على الحق جيوش الدولة الباطشة ذات الحشد الكثير ، وتلاحقت حوله نجدات بنى أمية من الشرق والغرب فما ضعف أو استكان بل واجه السيف فى مآزق حرجة تمت له فيها السيطرة والإنتصار ، لولا أن الرماة من أعدائه قد عمدوا إلى السهام ، وليس فى ملئه رام واحد يدفع النصال بالنصال ، فاتجه إلى قلبه سهم صادف منه مقتلا أليما . . . : فلقى ربه شامخ الرأس موفور الكرامة ، وتفرق أتباعه حائرين جزعين . .

وجلس هشام يتحدث عن هزيمة غريمه ! ! منتشيا مخموراً بما تم لجيوشه من الظفر الباهر ، والتفوق الحميد ثم سأل عن جثة الشهيد الصريع فعرف أنها ادرجت فى التراب فأمر أن نصلب على مرتفع بالهواء ليطوف الأنصار آسفين متأوهين ويرمقها الأعداء فرحين شامتين ! !

وارتقى البطل الشهيد إلى الأوج ميتا ! ! فكان لواء ناطقا بالثأر يستنهض الأباة ويوقظ الغافلين .

مصرع شاعر

الوقت أصيل ، والنسيم يهبّ ملاطفا الوجوه فى مجلس هشام بن عبد الملك بقصر الخلافة ، وقد جلس الناس صفوفا بين يديه ، ووفد إليه الشعراء من مختلف العواصم ينشدون مدائحهم ، ويبالغون فى ثنائهم العريض ، وأمير المؤمنين يسمع مبتسما مزهوّا ، ثم يعقب على كل شاعر بما يراه فى شعره ملتمسا جانب الجودة ، ومتغاضياً عما وقع فيه الشاعر من هفوات ! ! وجلساؤه طربون يظهرون الإعجاب ، ويدّعون الفهم والتبصر ، فإذا استحسن الخليفة معنى أيدوه وبالغوا فى تقريظه ، حتى تحيّر هشام لا يدرى أيستمع ثناء الشاعرين فى القصائد أم إلى مادحى نقده ، ومؤيدى رأيه من الجالسين ! ! وقد أحسّ بموجة من الغرور تسرى فى كيانه فتُرنح من أعطافه إذ تخيّل أن جميع ما يسمعه من الإطراء حق صريح لا يبلغ الباطل فى كثير أو قليل ، فما فرغ الشعراء من الإنشاد حتى التفت إلى جلسائه يقول :

إن الشعراء لسان الدولة الناطق ، وترجمانها الصادق !! وقد اطمأننت إلى رضا الرعية وسلامة الدولة حين سمعت القوم يبلغوننى فى قصائدهم الضافية حبّ الأمة وطاعة العامة !! ولا عجب فقد خالطوا الناس وقرءوا مشاعرهم وصوروا نوازعهم فيما ينظمون من الكلام ، وأنا لا أجيز الشاعر بعطائى الجزيل لأنه مدح فأسهب بل لأنه رسم الصورة التى رآها بعينيه فنقلها عن معاشريه من القبائل والبطون !! فقرب لنا النازح ، وأدنى البعيد .

قال مسلمة بن عبد الملك شقيق أمير المؤمنين ! ! لقد صدق الخليفة فى حديثه عن الشعر وتقديره للشعراء ، وقد رأيت والدى عبد الملك رحمه الله يجلس إليهم

ساعات مديدة فيطارحهم القول ويعارضهم الرأى وسمعته يروى عن كل شاعر سمع به ! وله عند كل بيت وقفة وفى كل معنى رأى ! ! وأعتقد أن الخليفة حفظه الله قد نزع عن قوس أبيه حين قدر رسالة الشعر ، فتفهم القصائد وأجاز الشعراء . . .

فابتسم هشام فى زهو ، وقال : لقد أثلج صدرى أن جميع من يؤبه لهم من الشعراء فى أصقاع الدولة العربية قد تدافعوا إلى تسجيل مكارم أميّة ! وتخليد مآثر بنى مروان !! ولا أعرف شاعراً شهيراً وقف منهم موقف القادح البغيض إلاّ ما ترامى إلينا من شذاذ الخوارج وفسدة الأعراب ، ولو شئت أن أستأصل شأفتهم فى الكهوف والمغاور بين التلال والوهاد لفعلت ، ولكنّى أترك كل قائل يقول ! ! والحق حق لا تعصف به الأراجيف ! ! فمال عنبسة بن سعيد ابن العاص على أذن هشام ! وقال هامسا ، لقد تذكرت شاعراً بالكوفة أساء القول ، وبالغ فى الإسفاف ، ولا أرى أن يسكت عنه أمير المؤمنين ، فله من المعجبين هنالك من يحفظون قبائحه ويروون أهاجيه ! ! وللحلم حد لا يتعدّاه .

فتضاحك هشام وقال فى استهتار : قلتُ لك إنى لا أعبأ بشذاذ الخوارج ، وفسدة الأعراب فدعهم وما يقولون !

فواصل عنبسة همسه إذ قال : ليس الشاعر خارجيّا ، ولكنه شيعى متعصب !! وهو فقيه ضليع يحفظ القرآن ويروى الحديث ، ويسوق منهما أدلة قاطعة على ظلم الدولة ويجمع أهل الكوفة على محبة آل أبى تراب ! !

فقطب هشام جبينه كالمتبرم وقال هامسا — يشير فى خفاء إلى الحاضرين — لى معك عنه حديث إذا انصرف القوم ، فانتظر معى إذا استأذن الناس ! !

وتحوّل الخليفة إلى جلسائه يطارحهم القول ويتبسط معهم فيما يخوضون فيه حتى انصرفوا أرسالاً مستأذنين !! وخلا هشام إلى عنبسة يستوضحه الحديث .

— ٢ —

قال هشام : أعد عليّ نبأ هـذا الشيعى الـكوفى وأسمعنى بعض ما قال من الـكلام .

فقال عنبسة : علم الله لقد جاءتنى الأنباء عنه محرجة أسيفة ، فانتهزت الفرصة اليوم ، لأبلغ أمير المؤمنين بعض ما وقفت عليه !! والشاعر شيعى من بنى أسد يدعى الـكميت !! وله قصائد ذائعة تعرف بالهاشميات ينشدها فى أرباض الـكوفة فتترنم بها السهول والهضاب ، وتسير بذكرها الركبان !! فردّ هشام فى غضب ساخط : وماذا يبغى هذا الأحمق من بنى هاشم ! وليس فيهم من يجزل العطاء كما نجزل ، ولو كان ذا كياسة ودراية لوفد إلينا مع الوافدين ! فأبلغناه بعض ما يطمح إليه ذوو نحلته من المدّاح ! !

فردّ عنبسة يقول فى صراحة ناصحة : يا أمير المؤمنين إن الرجل كما أرى صادق العاطفة مخلص العقيدة لا يرجو بشعره ثراء يتدفق أو حظوة تنال ، وقد نحر به آل على وجمعوا له من مال الرجال وحلىّ النساء قدراً ثميناً لو ادخره لـكان ثروة هائلة تسعده وتحييه ! ولـكنه رفض جميع ما تقدموا به فى إباء ، وقال ما معناه : لم أمدحكم لديناً أنالها، ولـكنى أرجو مثوبة الله فلا أكدرها بعطاء إنسان ! وإنى لأرجو من أحدكم ثوبا واحدا مما مس جلده لأحمله معى ، فيـكون ذخيرتى فى القبر ، وشفيعى حين ألقى الله ! !

فاحمرّ وجه هشام حتى صار جمرة تتوقد ، وقال لعنبسة ألا تسمعنى بعض ما قال . وقال ابن سعيد فى تأدب سأنشد على كره منى إن أذن أمير المؤمنين ، فقد حفظت هذا الشعر المأفون عن كراهية ، وإن له لذعا على الأكباد وغمزا فى القلوب .

فعجل هشام يقول فى سرعة لا عليك ، وأسرع بالإنشاد فأخذ عنبسة يروى :

ألا هل عسم فى رأيه متأمل ... وهل مُدْبِر بعد الإساءة يقبل
وهل أمةٌ مستيقظون لرشدهم ... فيكشف عنه النعسة المتزمل
كلام النبيّين الهداة كلامنا ... وأفعال أهل الجاهلية نفعل
رضينا بدنيا لا نريد فراقها ... على أننا فيها نموت ونقتل
فتلك ملوك السوء قد طال ملكهم ... فحتام حتام العناء المطول
رضوا بفعال السوء من أمر دينهم ... فقد أيْتموا طورا عداء وأثكلوا
تحل دماء المسلمين لديهم ... ويحرم طلع النخلة المتهدل
ومن عجب لم أقضه أن خيلهم ... لأجوافها تحت العجاجة أزمل
يُحلئن عن ماء الفرات وظله ... حسينا ولم يُشهر عليهن منصل
وغاب نبى الله منهم وفقده ... على الناس رزء ما هناك مجلجل
يصيب به الرامون عن قوس غيرهم ... فيا آخرا أسدى له الغى أول
فلم أر مخذولاً أجل مصيبة ... وأوجب منه نصرة حين يخذل
إذا شمرت فيه الأسنة كبرت ... غواتهمو من كل صوب وهللوا

فتضرم وجه الخليفة من الغيظ حتى أشفق عليه عنبسة ، فقطع الإنشاد ، وجعل ينظر إليه فيراه يزفر زفرات ملتهبة حانقة حتى إذا سكن غضبه بعض الشيء ، قال فى غيظ وأين إلى الكوفة خالد القسرى !! لعمرى لأوردنّه حتفه إذا سكت عن هذا الكلب العقور !!

فقال عنبسة فى تخابث : لقد علمتُ من كثيرين أن خالد القسرى صديق حميم للكميت ، وأنه يؤاكله ويشاربه ويأخذ هداياه ! !

فصاح هشام : أو متشيع يلى أمر الناس ويحكم باسم أمير المؤمنين ! !

فتراجع عنبسة يقول : ليس كل ما يقال صحيحا يا أمير المؤمنين ! ! فأنا لا أستطيع أن أكشف عن سويداء خالد ، فأعرف ما تسكن من حب أو بغض ، ولكنى آخذ عليه أن سمح للكميت بإذاعة هذه الأراجيف ، فتناقلها الناس ! !

فقال هشام فى تضايق مرير !! تأخذ عليه فقط ، لابد أن أذيقه الحتوف مع صديقه الزنيم ... ثم ضرب كفا بكف ، وقال منفعلا عجبا للناس !! ألم يتطوع شاعر مأجور ممن نجزل إليه العطاء بمعارضة هذا النباح !!

فردّ عنبسة يقول : علمت يا أمير المؤمنين أن الكميت معارض لا يغلب ، فهو ذو ثقافة واسعة فى العلوم والأنساب ! ! وله لسان حاد يتناول به الصغير فيضخم ويعظم، حتى إن الكثيرين يجتمعون فى حلقات دروسة ليروْا قدرته على الجدل ، ومعجزته فى الإفصاح ! ! وإنى لأعرف أن الفرزدق على علو سنه وجلالة قدره ، ذهب إليه الكميت بالكوفة — وهو صبى ناشىء — فعرض عليه شعره ، فأعجب به ، فاحتال الفرزدق وسأله أمام الناس أيسرك يا كميت أنى أبوك فردّ الغلام فى استهزاء . والله ما يسرنى أن تكون أبى ، ولكن يسرنى أن تكون أمى فتضاحك الحاضرون . فعض هشام بأسنانه على شفتيه وسأل : أتعوّضَ هذا النابح إلى الخوارج أعداء على ! أم اكتفى برهطنا الأكرم من الأمويين ! !

فقال عنبسة فى جد : إن الشاعر كما أعرف صاحب رأى مستقل وتفكير خاص فهو لا يندفع مع الشيعة فى كراهية بعض الصحابة ، والتنديد بهم بل يستقل برأى ذاتى ، فقد سئل مرات عن أبى بكر وعمر ، فأثنى عليهما ثناء مستطابا ! لا كما يصنع رهطه الغالون ! ! والغريب أنه لم يتعرض للخوارج فى شىء بل إنه صديق حميم للكثير من شعرائهم ، فأنا أعلم أن الطرماح

خليله وسميره !! يتخالطان ويتناجيان ! وقد سمع قائلا يقول :

إذا قبضت نفس الصرماح أخلقت   عرى المجد واسترخى عنان القصائد

فقال الكميت أى والله وعنان الخطابة والرواية !!

فصاح هشام غريب لعمرى ما تقول ! شيعى متعصب يمدح أبا بكر وعمر ، ويصادق أعداء أبى تراب من شعراء الخوارج ! !

فقال عنبسة فى دهاء ليست صداقة الكميت للخوارج عجيبة يا مولاى فهم والشيعة أعداؤنا جميعا ، وقد ألفت قلوبهم تلك الخصومة الناغرة فتناسوا ما بينهم من أحقاد ! !

فهز هشام رأسه ، وقال فى غيظ : سأكتب الآن إلى خالد أن يأتينى مع الكميت بعد أن يخزيه أمام شيعته ، فإذا قدما علىّ فستعلم ما أنتقم به من كل وغد جرىء !! ثم استأذن عنبسة ، فخرج وترك هشاما تموج به شجونه موجا موارا فلا يستنيم إلى هدوء .

— ٣ —

كان خالد بن عبد الله القسرى والى العراق جالسا فى قصر إمارته بالكوفة ذات صباح ، فجاءه خطاب هشام بالقبض على الكميت الأسدى شاعر الشيعة مع قطع لسانه أمام رواته ومؤيديه ... ثم الحضور به سريعا إلى دمشق ، فقرأ الخطاب فى حيرة ، ودهش مأخوذ الأيدى ، ماذا يصنع بصاحبه !! غير أنه — مع ذلك — أمير حازم يحرص على مستقبله ، ويرى التهاون فى مطلب الخليفة الطاغية جريمة فادحة تطيح به بين صباح ومساء ، فأصدر أمره السريع

باعتقال الشاعر ، وزجّ به فى أعماق السجون ردحاً من الزمن حتى ينبسط الوقت قليلا أمامه للتفكير الحصيف !! ونظر الشاعر فوجد نفسه مكبّلا بالأصفاد ، يتخبط فى ظلام مطبق لا يَلُوح فى غياهبه شعاع من رجاء !! فتزلف إلى السجّان حتى أنفذ رسالة باكية إلى صديقه أبان بن الوليد ، وكان أميراً على واسط وهو من الحيلة والدهاء بحيث تنفرج له المضايق المتلاحمة عن طريق متسع ذى شعب وانحاء !! فحين وصلت الرسالة إليه أدرك محنة صديقه وتسربل ظلام الليل فعجّل بالحضور مستخفيا إلى الكوفة ، ثم طرق دار الكميت فوجد زوجته تذرف الدموع وقد أحاط بها اليأس فما تعرف سبيلا للأمل فى نجاة الكميت الزوج المنكود ، فأخذ يرفه عنها بمختلف الأعاليل ثم قال فى حزم بالغ : إن الكميت مهدد بأسوء المصير ولن ينقذه سواك !! فنظرت الزوجة مدهوشة ! وصاحت كيف أستطيع إنقاذه وقد حالت دون ذلك الأسباب .

فقال إبان فى دهاء : لا يحتاج الأمر منك إلى غير ثبات القلب وشدة الإخلاص ، فنظرت إليه كاللائمة وكأنها تقول : وهل يشك الأمير فى إخلاص زوجة لزوجٍ ترى فيه معقد الآمال ومناط الرجاء !! وتساقيه كؤوس المودة والولاء !!

فأدرك إبان ما يختلج فى خاطرها من أفكار وعجل فقال : تستطيعين أن تذهبي إليه بملاءتك السوداء فى سجنه البهيم ، فإذا قدمت على السجّان تلطفى معه حتى يدخلك إليه ، وحينئذ تعرضين على الكميت أن يرتدى ملاءتك النسائية ، ويخرج بها أمام السجّان !! فإذا انفرجت أمامه الطريق ركب راحلةً أعدتُها لذلك ، ثم اتجه إلى مغاور الصحراء متنقلا بين القبائل فى تستر واختفاء حتى يجيء دمشق ، فيستشفع إلى الخليفة بمسلمة بن عبد الملك وإنى لآمل أن يتحقق رجاؤه فى مسلمة فيزول خوفه ! وتعود إليه الدعة والاستقرار .

قالت الزوجة فى تساؤل : وماذا أصنع حين يأخذنى السجّان إلى خالد !! وقد ساعدتُ على هروبه بحيلة نكراء !! فهز إبان رأسه فى استخفاف وقال : لن ينتقم من امرأة على كل حال ، فهو يحاذر أن يفعل ، فتكون جريمته سبة الدهر وفضيحة الأجيال !! ففكرت الزوجة مليا ثم اطمأنت إلى الموافقة ونهضت إلى ملابسها الفضفاضة وعجلت بارتدائها وأخذت طريقها إلى السجن ومن ورائها إبان بما أعدّ من راحلة .. ثم مثلت الزوجة المخلصة دورها الدقيق كما رسمهُ إبان عن مهارة وإحكام !! حتى إذا خرج الشاعر من محبسه تلقفه صاحبه فأهداه الراحلة وتركه فى مهب الأقدار تصنع به ما تريد !!

وطلع الصباح فاستدعى خالد أسيره ، ففوجىء بامرأته دونه !! فأرغى على السجّان وأزبد وتهدده بأسوء ضروب التنكيل .. ثم عمد إلى الزوجة فحاول أن ينتهرها على ما اقترفت من جريمة آثمة . ولكنه طوى الشفاه ، على غيظ محرق ، وأسلمه رأسه إلى تفكير طويل يتدبر ما عسى أن يجيب به أمير المؤمنين .

— ٤ —

بلغ الكميت دمشق كما أشير عليه أن يتجه ، فقصد مسلمة بن عبد الملك وكشف له النقاب عن سره ، ورجاه أن يشفع له عند أخيه ، ولكن الأمير صارحه فى صدق مؤثر باستعصاء ذلك عليه ، فهشام حقود لجوج يركب رأسه ولا ينظر فى شفاعة أخ أو حبيب !! فاضطرب الشاعر وسأل عما عسى أن يأتيه! فأطرق مسلمة قليلا ثم قال : لقد مات معاوية بن هشام منذ زمن قريب وجزع عليه أمير المؤمنين جزعا فاق كل حدّ حتى خفنا عليه العاقبة ، فإذا كان الليل فاضرب رواقك على قبره وسأبعث إليك ببنية ليكونوا معك فى الرواق

فإذا دعابك الخليفة تقدمت إليهم أن يربطوا ثيابهم بثيابك ويقولوا هذا لاجئ استجار بقبر أبينا ونحن أحق من أجاره ! ! وإذ ذاك لا يجد مفراً من الغفران .

أشرق الصباح فتطلع هشام من قصره كعادته إلى القبر فوجد أشباحا تلوح فقال ما هذا ؟ فقالوا لعله مستجير بقبر ولدك الحبيب ! فبكى قليلا ثم قال فى لوعة عفوت عنه إلاّ أن يكون الكميت ! فإنه لا جوار لكاذب نبّاح ! فقيل إنه الكميت يا أمير المؤمنين فصاح الخليفة غاضبا مشتطا ليحضر أعنف إحضار !! فلما دُعى إلى اللقاء ربط الصبيان ثيابهم بثيابه وبكوا واستعبروا وصاحوا بأمير المؤمنين يا جداه يا جداه هذا لاجئ استجار بقبر أبينا ، وقد مات ومات حظه فى الحياة فاجعله هبةً له ولنا ، ولا تفضحنا فيمن استجار به ، فتأثر هشام لبكاء أحفاده ، وتراءت له صورة فقيده الأعز فبكى فى أسى مفرط حتى كاد أن يغمى عليه ، ثم قال بعد أن تماسك : ويلك يا كميت من زيّن لك الغواية ودلاك فى العماية ! فقال الشاعر فى انكسار : الذى أخرج أبانا آدم من الجنة فنسى ولم نجد له عزما .

فقال له فى تلدد حقود أأنت القائل :

فقل لبنى أمية حيث حلوا وإن خفت المهند والقطيعا
أجاع الله من اشبعتموه وأشبع من بجوركمو أجيعا
بمرضى السياسة هاشمى يكون حيا لأمته ربيعا

فقال الكميت لا تثريب يا أمير المؤمنين فقد محوت قولى الكاذب بقولى الصادق :

أورثته الحصان أم هشام حسبا ثاقبا ووجها نضيراً

وكساه أبو الخلائف مروا ن سنى المكارم المأثورا
لم تجهم له البطاح ولكن وجدتها له معاناً ودوراً

فتربع الخليفة جالسا ثم نظر إلى أحفاده فرحمهم فى موقفهم الجليل وأعلن رضاه الظاهرى عن الشاعر فأطلقه وفى صدره بلابل ثائرات !!

سار الشاعر إلى الكوفة وقد خدع بما شاهد من عفو هشام ! ! ونسى أن الخليفة يكنّ له من الضغينة ما يهدده بالكارث الشنيع ، وقد نفعه استشفاعه بأحفاده فزحزح أجله قليلا ولكنه لم يطفىء نواغر دامية فى قلب هشام تتألب عليه فى خلواته فيتحرق منها على مثل الجمر المشبوب !!

وقد شاء أن يتخلص نهائيا من حقوده الساهدة وأضغانه المشتعلة فعزل خالد القسرى عن العراق ، ودبر له مكيدة أطاحت به على يد واليه الجديد يوسف بن عمر الثقفى ! ! إذ بعث به من دمشق إلى إمارة الكوفة مزوّدا بتعاليمه المنتقمة ، ومنفذا أمره فى استئصال شأفة خالد والكميت معاً ، منتحلا لذلك شتى الأسباب دون تأخير . .

وجاء يوسف نتتبع شيعة علىّ بما يستفظع من الشنائع الرهيبة ، فلمح الكميت بوارق شر يتهدده ! ولكن ثقته فى عفو هشام قد ثبتت قليلا من قلقه الموزع وضلاله الحائر ورأى أن يتزلف إلى الوالى الجديد فأخذ يمدحه بقصائد عليها الخوف وتدفع إليها الرغبة فى السلامة والنجاة ! ! ويوسف لغز مبهم يحاول الشاعر المتفرس أن يصل إلى حلّه فلا يستطيع فالرجل جامد الملامح ، أعجم النظرة لا تنطق أساريره بما يكشف خواطره أو يبدى صفحة قلبه ! !

وظل الشاعر بين الخوف والأمن ، والأمل والرجاء حتى وفد ذات صباح على الأمير ، فأسمعه بعض مدائحه فيه ، وانتظر أن يجد إبتسامة مريحة أو يسمع كلمة سارّة ! ! ولكنه فوجىء بانقضاض بعض الحراس عليه وتمزيق جسده

بالحراب !! ويوسف ساكن هادىء كأن الأمر لا يعنيه ، وأصبح الناس يقولون لقد هجم الرعاع من اليمانية على الشاعر فتكاً بالحراب وطعنا بالرماح لهجائه سيدهم فى بعض ما أسلف ، فنالوا حياته دون أن يأمرهم بذلك يوسف ! !

فيردّ عليهم العقلاء كيف يصدر ذلك فى حضرة يوسف بن عمر طاغية العراق إلا إذا أشار عليهم بما يريد ، ثم لماذا لا يؤاخذ ذوى الجريرة بما صنعوا من فحشاء !! وقد شاهد عن عيان ورأى عن يقين ! ويسأل قوم آخرون وهل يجرؤ يوسف على قتل الكميت وقد عفا عنه أمير المؤمنين ! !

فيردّ عليهم العقلاء ومَن أدراكم أن أمير المؤمنين قد عفا عنه من قلبه وضرب صفحا عن هاشمياته وقد سارت فى العرب مسير الريح ! وأين الوالى الذى يستطيع دون إيماز قوى أن يطيح برجل ، ضمن عفو الخلافة ، وعاد من دمشق بعد أن أسكن الثائرة وطفأ اللهيب ! !

ثم يصمت القوم فى أسف أليم .

طفيلي يلهو

أشرقت الشمس وضيئة زاهية ، ونظر الوليد بن يزيد إلى السماء فوجدها صافية رائعة لا تمر بها غيمة تؤذن بعارض ! فدعا رفاقه من ندماء الشراب ، وأصدقاء الطرب والبهجة ، وأمر أن يسيروا جميعاً إلى منزلهم الأنيق فى غوطة دمشق ، حيث يتجلى الربيع الناضر فى أجمل زينته ، فيرف الشجر المياس محملا بأشهى الثمار ، ويهب النسيم السكران منتشيا بسلافة الزهور ، وتترقرق الجداول شاكية مداعبات الهواء ومباغتات الريح !! وقد صفت الأرائك مكسوة بالمخمل الناعم ، ومطعمة بفصوص الجواهر والياقوت !! وأخذ المطربون أماكنهم الصادحة ، ليبعثوا هواتف الأشجان ، ويثيروا كوامن الوجدان بما ينشدون ، ويلحنون ، وإنهم لفى أنسهم الناعم ، ولهوهم الأنيس ، وقد تحلق حرس الخلافة حول المجلس الحافل يمنع شذاذ الآفاق من السابلة ، وغوغاء المارة من الجائلين ، إذ قدم شيخ زرى الهيئة مضطرب الخلقة ، قذر الملبس ، وطلب أن يستأذن له على أمير المؤمنين .

قال صاحب الحرس : ثكلتك أمك يا أشعب ، أمثلك فى هوان قدره ، وقبح منظره ، ورثاثة ثوبه ، يطمع أن يصل إلى مجلس الخليفة ، وقد حفل بكل زاهر الطلعة ، رائع الرونق من شباب أمية ، وغطارفة مروان !

فتبسم أشعب فى استخفاف وقال : علم الله ما كنت ذا رغبة فى رؤية الغوطة اليوم لولا أن أمير المؤمنين حفظه الله قد أرسل من يدعونى إلى هذا المجلس فى الصباح ، ولولا طاعة الخليفة ما تركت المنزل ، وأنا كما ترى ظاهر الإعياء متضح السقام !!

فهز صاحب الحرس رأسه وقال فى تخابث : أتريد أن تخدعنى عن تطفلك

يا أشعب بزخرف من القول حتى آتى أمير المؤمنين فأعلمه بمقدمك ، وقد لا تكون فى حسابه ، فيأذن متفضلا بدخولك ، لتصبح سخرية العابث ، وضحكة الهازئين ! ! أطننته عرسا حافلا لسوق خامل من أفناء دمشق ، ونسيت عظمة الخلافة ، وجلال الوليد !

فقال أشعب فى جد حازم: لقد صارحتك بالحقيقة، وأعذرتك إذ أخبرتك ، فإذا حاسبنى أمير المؤمنين فعليك الملامة والتثريب !

سكت صاحب الحرس كالمفكر أولا . . . ثم ذهب بين التصديق والتكذيب إلى مجلس الوليد ، وقال فى أنحناءه مهذبة . أشعب يطلب المثول يا أمير المؤمنين .

فتضاحك القوم عابثين ، ووقف شاب من الندماء ليقول للخليفة : ناشدتك الله إلا صرفت عنا هذا الشره المبطان ! ! فليس اليوم للسفلة المتبطلين ! !

فضحك الوليد فى استهتار ، وأخذ كأسا مترعة فصبها مرة واحدة في حلقه ، وقال مخاطبا نديمه فى استخفاف مفرط ، تعوده منه خلطاؤه :

كلنا شرهٌ مبطان لا أشعب وحده ، نعبد الطعام والشراب ، ونحسب لهما ألف حساب ! !

فردّ نديم ينزلف : معاذ الله أن يكون أمير المؤمنين شرها مبطانا ! وهو غصن باسق من دوحة مروان ! ونبعة قوية من أرومة أمية ! وما فى أجداده وأبائه إلا عف مترفع ! لا يخضع لشهوة بطن أو ينحدر إلى نهمة أمعاء .

فضحك الوليد وتمايل . . ثم نظر إلى صاحبه فى استهزاء ، وبدأ حديثه كالساخر : ما هذا الذى تقول ! أخرجتَ معى إلى الغوطة للمرح والصراحة أم للتكلف والرياء ! ! لسنا الآن فى قصر الخلافة نستقبل الوفود ونقضى

المراسيم ! ولكننا في خلوتنا المتحللة نرفع الهيبة ، وتنطق بالصريح كما يجيء !!
من قال إن آبائي من أمية قد عنوا عن الطعام والشراب ولدىّ من نوادرهم الأعاجيب ! ثم التفت إلى جليسه الأيمن وقال في سخرية : أتدرى لم ذا يصنع الصائمون الكنافة في دمشق ، لقد كان معاوية ابن أبي سفيان لا يحتمل رمضان ! فأخذ يبحث عن غذاء دسم يلصق بأحشائه فترة طويلة ! فهداه بعض الزائرين من القسطنطينية إلى الكنافة . فصنعها مثقلة بالسمن واللوز والسكر! وتناقلها عنه الناس في كل مكان ، حتى اشتهر بها رمضان في ربوع الأقطار !!

فتبسم القوم في أدب ، ولم ينطقوا بشيء إجلالا لمعاوية وللوليد !!

غير أن الخليفة يدور ببصره ، فيرى الاحتشام والتحرج ، فيصيح : مالى أرى صمتا موحشا كأننا في مقبرة لا في حديقة !! ألم تعجبكم هذه النادرة ! سأروى لكم غيرها ... ثم تناول كأسا ثانية وصبها في جوفه ، وأخذ يقول :

أقبلُ رجل إلى سليمان بن عبد الملك وهو بِدابق ومعه سلتان مليئتا ببيض وتين ، فقال لرفقائه قشروا قشروا ، وجعل يأكل بيضة بيضة وتينة تينة حتى فرغ من السلتين ثم أتوهُ بقصعة مليئة مخا بسكر ، فانكبّ عليها حتى مرض ومات بعد أسبوع صريع الطعام !! ونظر الخليفة إلى ندمائه فلم يرَ من يضحك إبل سمع قائلا يقول في أدب : رحم الله سليمان بن عبد الملك أمير المؤمنين !!

فصاح الوليد تترحمون عليه أمامى ! ولو بعدتُ قليلا لهزئتم به ! تبًّا لكم من منافقين ، ثم تناول كأسا ثالثة فشربها دفعة واحدة : وقال : سأطيل احتشامكم ، وأروى النادرة الثالثة !!

خرج هشام بن عبد الملك المتنزه ذات يوم فرأى راهباً يتعبد في بستان ، فدخل عليه مفاجئا ، وأخذ الراهب يقدم إليه من فاكهة الحديقة ما يختار عادة

للخلفاء ! وهشام يأتى على كل شىء فما يدع ! ثم قال للراهب : أتبيعنى هذا البستان ؟ فسكت الراهب ولم يُجب ! فقال هشام ! ويحك لِمَ لا تجيبُنى ! فقال الراهب : وددت لو مات الناس جميعاً غيرك يا أمير المؤمنين ، فتعجب هشام وسأل : لماذا تودّ ذلك ؟ فأجاب الراهب فى ملاطفة : كيلاَ يشاركك أحد فى هذه الثمار ! !

ثم ضحك الوليد ضحكة عالية وتابع النظر إلى ندمائه فوجدهم يبتسمون ولا يتكلمون فجذب ثوب أحدهم وقال : بحياتى إلا عقبّت على ما أقول .

فتبسم الجليس فى لطف وقال : علمت أن الحجاج قد أكل أربعا وثمانين لقمة فى كل لقمة رغيف من خبز ! وفى كل رغيف ملء كفه من السمك الشهى ! !

فضحك السامعون ساخرين : وأخذوا يتندرون على الحجاج ويقذفونه بقوارص التهم ولواذع الشتائم !

فأطال الخليفة إليهم النظر وصاح : سحقا لريائكم القبيح ! أحين تركنا بنى أميه تضحكون وتتندرون ! ! ثم رفع رأسه لصاحب حرسه وقد أطال وقوفه فلم يؤذن له منذ جاء — وقال : أدعُ أشعب ولا تبطىء ! فليس أحد أفضل من أحد ، كلنا شره مبطان ! ! مضت لحظات وقدم الطفيلى الشيخ مبتسما ، يثب فى سيره ، ويميل بمنكبيه متظالعا ، ليجذب إليه الأنظار ، ثم مثل بين يدى الخليفة فى ارتعاش متكلف ليضحكه !

فأحضر كرسيا من الخشب وأجلسه عليه فى وضع متقابل كى يشهدهُ الحاضرون !

وقال الوليد ساخراً ، تحدث إلينا يا أشعب ، فأنت راوية اليوم ، وليس لنا غير الاستماع !

فأخذ أشعب يتضاءل وينكمش فى استكانة خادعة وقال فى ذلة : أعزك الله يا أمير المؤمنين ، أنا جوعان سغبان ولا يحسن حديث الخلفاء شيخ تتلوى أمعاؤه فما تستريح ! !

فصاح الوليد سائلا فى عبث : وهبك لم تجدنا الآن ! فأين كنت تتناول الطعام ! فرد أشعب فى بديهة سريعة : كيف وقد رأيت بالأمس فى منامى أنك ستجلس اليوم ، ورؤياى صادقة كرؤيا الأنبياء ! !

فتضاحك القوم فى مرح ، وقال الخليفة مستهترا : رؤياك كرؤيا الأنبياء يا أشعب ، لو كان الأمر كذلك ، ما تركت قراءة القرآن فى المساجد ، وأخذت تتتبع الملاهى ليستهزىء بك الناس !

فأطرق أشعب متصنعا العبوس . . ثم رفع رأسه وقال : معـــاذ الله يا أمير المؤمنين أن أترك القرآن فأنا لا أزال أرتله صباح مساء .

فالتفت الخليفة إلى ندمائه وقال : شهدتم عليه ، سأمتحنه الآن ، فأرى مقدار ما يحفظ من السور والآيات .

ثم اتجه إلى أشعب وقال فى جد : أى سورة تعجبك فى القرآن ؟

فرد أشعب متسرعا : المائدة يا أمير المؤمنين ، فتجاهل الخليفة تعريض صاحبه وسأل وأى آية تختار ؟ فرد أشعب دون إبطاء : ذرهم يأكلوا ويتمتعوا ! !

فضحك السامعون ، وتابع الخليفة يسأل ثم ماذا من الآيات يا أشعب ؟ فقال : آتنا غداءنا ، فقال الوليد قل غيرها فرد أشعب : كلوا من طيبات

ما رزقناكم ، فتطلع إليه الخليفة فى جد وصاح : اختر غير آيات الطعام ! فقال أشعب على الفور : ادخلوها بسلام آمنين !!

فسأل الوليد أليس غيرها ؟ فقال أشعب : وما هم منها بمخرجين ، فنظر الخليفة إلى القوم وقال فى إبتسام : حيّرتنى بديهة هذا الخبيث !

فقال مستمع أريب : إن أشعب قد راجع القرآن بعناية ليلتقط منه مايريد؛ فأجابته الآن مُعدّةٌ مهيّأة ! وليست من باب الإرتجال !

فضحك أشعب وقال : صدقت يا هذا ، لأنى رأيت بالأمس فى منامى أنكم ستمتحنوننى فى القرآن فأخذت هذه الآيات !

فضحك القوم مسرورين ! ونظر الوليد إلى المتكلم فرآه ساكتا لا ينطق ولا يضحك ! فقال له لستُ كفؤا لحوار أشعب ! هذا أمير المتطفلين !

فرفع الشيخ إصبعه يطلب الإذن فى تخوف مضحك ثم قال : لست أمير المتطفلين يا مولاى هناك مئات غيرى ممن تبوءوا إمارة التطفل عن جهاد عظيم !

فزجره الخليفة قائلا : صه يا دجال ! فما نعرف من القوم أميراً سواك .

فهز أشعب رأسه هزة مضحكة .. وقال فى احتيال إن التطفل لم ينشأ فى لغة العرب إلا منتسبا إلى طفيل بن زلال الكوفى ! أأكون أميراً عليه ! واسمه أولى بالتقديم ! قولوا إذن أمير الأشعبيين ، فأكون الأمير !

فضحك الخليفة وقال لجلسائه : لحاه الله ، لم يذهب بعقله الشراب ، هو يتحدث بمنطق سديد ثم اتجه إلى أشعب يسأل : وما بلغ من تطفل صاحبك طفيل بن زلال ؟

فتربّع الشيخ فى مجلسه دون أن يخلع خُفَّهُ الرثة ! فأثار عاصفة هازئة من الضحك ثم تصنع الوقار وقال متخذا سَمْتَ الخطيب :

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله ، استمعوا عباد الله .

لقد كان طفيل بن زلال أعرابيا من بنى هلال ، وكان إذا سمع أن قوماً لديهم دعوة أتاهم فأكل طعامهم دون استئذان ، وقد أوصى ابنه عبد الحميد فى عِلّتِهِ التى مات بها ، فقال له يا بنى إذا دخلت عرسا فلا تتلفت تلفت المريب ، وتخير المجلس اللائق وإن كان العرس كثير الزحام ، فنُزْوانهَ وامضِ ولا تنظرْ فى عيون الناس ، ليظنّ أهل المرأة أنك من أهل الرجل ، ويظن أهلُ الرجل أنك من أهل المرأة ، وإذا كان البواب غليظا جافيا ، فابدأ به مره وانهه فى غير تعنيف ولا إذلال !!

فتمايل القوم ضاحكين ، واستلقى الوليد على كرسيّه من الطرب ، ثم قال فى استهزاء ! وهل طبقت أنت هذه الوصية يا شيخ !

فهز أشعب رأسه فى تمايل وقال إن الناس يا أمير المؤمنين ماكرون خادعون ، وقد فطنوا إلى ذلك فلم يَعُودوا يجهلون كل متطفل محترف ! وإنى لأقابلهم بالحيلة والخداع لأبلغ منهم بعض ما أريد فصاح الوليد فى ترنح أرنى بعض خداعك أيها المحتال ؟

فوقف أشعب فى مكانه وقال أنا جائع يا مولاى ! والجائع لا يتقن الحديث .

فزجره الوليد جاداً ثم قال فى استخفاف : هذا خداع على يا شيخ ! ونحن لا نريد أن تخدعنا نحن ولكن أرنا كيف تخدع الناس !

فانكمش الشيخ فى مكانه كالحذر الخائف وقال وهو يتصنع الاضطراب والفزع والقوم يضحكون فى عبث واستخفاف :

يا أمير المؤمنين ـ دعا رجل من أهل المدينة نفراً من خلانه إلى مأدبة حيتان وبينما هم يأكلون إذ توكلتُ على الله ودخلت فقال أحدهم هامسا ـ وقد سمعته بمعونة الله وتوفيقه ـ إن من شأن أشعب أن يعمد إلى أجلّ الطعام فاجعلوا كبار هذه الحيتان فى آنية بعيدة ويأكل معنا الصغار ففعلوا ، ثم قدمت فقالوا : ما رأيك فى الحيتان ؟ قلت والله إن لى عليها لغضباً شديداً وحنقا لأن أبى رحمه الله مات فى البحر وأكلته الحيتان ! فقالوا دونك وكُلْ ما تشاء لتأخذ بثأر أبيك فجلست ومددت يدى إلى حوت صغير منها ، ووضعته فى أذنى ، واتجهتُ بنظرى إلى الآنية ذات الحيتان الكبيرة ، وقلت فى سرعة واهتمام أتدرون ما يقول لى هذا الحوت ! فقالوا فى تعجب : لا ندرى شيئاً ، قلتُ يقول فى إخلاص إنه لم يحضر موت أبى ولم يدركه لأن سنه تصغر عن ذلك وقال لى عليك بتلك الكبار فى زاوية البيت لأنها أدركت أباك فأكلته ! فضحك القوم وعلموا أنى عرفت المكيدة وكشفتها عن طريق الاحتيال فضحك الوليد ، وقال قصة طريفة دون جدال : لماذا لا تشتغل بالسياسه لتخادع الناس !

فردّ أشعب فى أدب العفو يا أمير المؤمنين ! إن السياسة فوق كل احتيال !

وجاء الخادم ومعه أطباق الفاكهة ، فوضع أمام كل نديم طبقه الخاص ، وحين سلّم إلى أشعب طبقه ، أفرغه فى ثوبه ، وستره بركبته ، وقال فى فزع : واذلاّه لقد أعطانى الطبق فارغا يا أمير المؤمنين ، فردّ الوليد ضاحكا : سلْ ركبتك يا أشعب فقد أكلت الطبق وخدعتك ! إعطه غيره يا غلام فهوع أشعب ونزع الطبق متعجلا وقال فى استكانة مضحكة : نفذتُ أمرَ أمير المؤمنين .

ومضى القوم يأكلون ومنهم من يقذف بالقشرة فى وجه أشعب ، فيفتح فمه في حذق ليلتقط ما يقذف ! وقد بلغت مهارته فى ذلك حدًّا رفَّه عن الحاضرين ، وأضحكهم سروراً ونشوة ! حتى قال الوليد لجلسائه ، ويحكم : كنتم تريدون أن تمنعوا عنا أشعب ، ولو مُنع عنا وجهه اليوم لخسرنا الشيء الكثير !

فوقف أشعب من مجلسه ، ثم انحنى راكعاً ، وهم بالسجود ! فقال الوليد : صه يا أحمق ! ستدنس الفوطة إن لمست أرضها الفاضرة بجبهتك الشوهاء ! حذار من السجود !

فتراجع أشعب فى استكانة وقال : أمرك يا سيدى العظيم !

فصاح بعض الندماء ! لاتتعمدّ طورك أيها الشيخ ! لم نردْك هنا عابداً ساجداً ولكن نريدك قصّاصا مضحكا ! فهات نادرة أخرى مما دبره احتيالك اللئيم.. ثم توجه بنظره إلى الوليد وقال فى أدب إن أذن أمير المؤمنين ، فهزّ الوليد رأسه وقال : أذنت فهات يا شيخ ، وأوْجز الحديث .

فعاد أشعب إلى كرسيه الخشبي ، وتربع عليه فى حركة عابثة ، وهم بالكلام فمسح شفتيه ، ووضع يده على جبهته كمن يتذكر : ثم قال فى تؤدة هادئة .

لقد أودعت يا أمير المؤمنين عندى امرأة من جاراتى ديناراً ، فلما أصبح الصباح نظرت إليه فوجدته قد ولد درهما ، فذهبت إلى صاحبته وأعطيتها الدينار والدرهم ، وقلت فى صدق : إن دينارك قد ولد لدىّ ! وطفله من حقك تغذى الدرهم ، ففرجت فرحا شديداً ، وقالت : دعه عندك حتى يلد من جديد ، وفى اليوم الثانى وجدت الدينار قد ولد الدرهم فبعثته إليها فقبلته فى سرور ، وفى اليوم الثالث مات الدينار فى الوضع ، فاعلمت صاحبتَه فصرختْ وناحتْ

وشكتْ أمرى للناس فوقفوا معها ! حتى تعجبتُ وقلت : أتصدق هذه المرأة أن الدينار يلد ولا تصدق أنه يموت ! ثم نظر فى مسكنة منكسرة وقال :

هذا بعض ما أكابد يا أمير المؤمنين !

فابتسم الوليد ضاحكا وقال : أنت بحق معذور يا أشعب مع هؤلاء المحتالين فصفق الشيخ فى طرب وقال فى لهجة مضحكة — وقد غَضَّنَ ملامح وجهه فأثار العبث والاستهزاء : الحمد لله ، لقد نصرنى أمير المؤمنين .

— ٢ —

ودنا موعد الغداء ففاحت رائحة الشواء حتى اختلطت بأنفاس الزهر والياسمين ، فنهض أشعب من مكانه مدهوشا ، وقال فى جد متكلف : أين حبيبى العزيز ؟!

فسأل الوليد فى عبث : وهل عرفت الحب أيها الشيخ العجوز !

فأسرع يقول : علم الله ما لمحت مائدة على بعد ، إلا عشقت ما عليها دون أن أراه !

فزجره الخليفة قائلا فى جد : أجب عن السؤال ، وإلا قطعت رقبتك العجفاء ! هل عرفت الحب ؟ فجعل أشعب يدخل فى نفسه منكمشا وقال متباكيا فى لهجة مضحكة : عرفته يا أمير المؤمنين فقد أحببت جارية بالمدينة ذات جمال ودلال !

فتهكم بعض الندماء يقول : أأحببتَها بوجهك هذا يا أشعب ؟ فقال الوليد : ولم ؟ لكل ساقطة لاقطة ، ثم توجّه إلى الشيخ يقول : وماذا أهديت إلى حبيبتك أيها العاشق العميد !؟

فقال أشعب — وقد نظر نظرة اتسعت بها حدقتاه : كان فى أصبعى خاتم

فطلبته ، وقالت إنها ستذكرنى به ، فقلت لها فى صراحة واضحة إذا كان الخاتم للذكرى فاذكرى أنك سألتنيه ، ومنعتك إياه !

فقال الوليد فى سخرية : الحبّ لا يعرف البخل أيها الشره الضنين ، فأنت إذن لم تحب ، وسأحرمك من الغداء ! جزاء كذبتك البلقاء !

فصرخ أشعب فزعا : تحرمنى من الغداء ! سأقتل نفسى يا أمير المؤمنين !

فأخذ القوم يتضاحكون متغامزين ، وقال قائلهم فى سخرية : افعل بنفسك ما تشاء ، فدمك هيّن على أمير المؤمنين !

فتراجع أشعب وقد تأمل الوجوه فى تطلع ، وقال لمن يحدثه : لقد نسيت أيها الذكى ـ كيف أقتل نفسى ، إنى سأسير معكم إلى الخوان وآكل وأخالف أمر الخليفة ، فيحكم علىّ بالقتل وألقى الله شبعان ريان ! ونعم الممات!

فتبسم القوم .. ولكنّ الوليد يضحك قائلا : لن تذهب إلى الطعام وبيننا وبينه هذا النهر المتدفق ، لأننا سنركب إليه الزوارق ولا يحملك الغوتى ، وترانا على الشاطىء من بعيد نأكل من الموائد الحافلة ! وأنت متحسر حزين !!

فأظهر الشيخ مزيداً من الجد ، وقال : لقد ذكّرنى أمير المؤمنين بحادثة شبيهة لما يقول كابدت حسراتها منذ حين !

فعبس الخليفة عبسة غاضبة ، وقال معنفّا : وهل خطر ذلك على ذهن قبلى أيها المجنون ؟

فتضعضع أشعب ونظر فى توسل وقال : إنها حادثة شبيهة فقط ، وليست بعينها ، فقد رأيت ذات ليلة فى طريقى عرسا من الأعراس ، فدخلت إليه فى لهفة ، وعرفنى صاحب العرس ، فاحتفل بى ، وأحضر سلما ، وقال فى لهجة مؤدبة . إلى الأعلى أيها السيد ، فارتقيت إلى السطح ، وظننت المدعوين

سيصدون ، ولكنه حمل السلم بعد صعودى وحدى ! وأحضر الطعام فجعل القوم يأكلون ، وأنا أصرخ عليهم فوق السطح ولا من سميع !

ثم ابتسم الشيخ فى دهاء وقال . محال يا أمير المؤمنين ، فذلك صعلوك حقير ، أما أنت فأمير المؤمنين بن أمير المؤمنين بن أمير المؤمنين ! لقد رأيت أجدادك جميعاً يا سيدى الكبير ، وإنى لأستشفع إليك الآن بمقامهم الخطير .

فتراجع الخليفة وقد أخذته أريحيته لما سمع من حديث ذويه فنظر إلى جلسائه يقول . لقد استشفع الشيخ بآبائى فماذا تقولون ؟

قال نديم يتظرف : هبه كلب أهل الكهف يا أمير المؤمنين ، يتبعهم إلى الجنة ولا يحجب عنه نعيم !

فصاح أشعب نعم الكلب أشعب إذا كان صاحبه أمير المؤمنين !

ونظر الجميع فرأوا الزوارق تدنو إلى شاطئهم النضير ! فخفوا مسرورين ، ومعهم مضحكهم الأنيس أشعب ، وقد حلم بمائدة حافلة وترقب فى عجل تحقيق حلمه اللذيذ .

مطر بتان فاتنتـــان

دخل مسلمة بن عبد الملك المسجد الأموى ملتفاً بعباءته السوداء قبيل الفجر وجلس فى ناحية منعزلة خلف المنبر يسبح الله فى همس دون أن يشعر به أحد ، وحمل إليه الصمت المطبق فى هدوء السحر حوار شيخ وقور يجلس فى المحراب مع تلميذ خاص به ، فأرهف أذنيه يستمع ما يدور بين الرجلين ، لأن اسم الخليفة يزيد بن عبد الملك تردّد فى الحوار مرات ، وكان مسلمة يعلم عن شيخ المسجد الأموى صدقا فى النظر ، وسلامة فى الرأى ، وإحاطة بصيرة بجميع ما يدور فى دمشق من أنباء ، لأن أتباعه المخلصين من رواد المسجد يطلعونه على ما يقع بالمدينة تحت أعينهم كل يوم ، فيبدى فيه رأى الشريعة مؤيداً بالدليل ومدعما بالبرهان ، وقد انقادت له الجماهير فى دمشق انقياداً قلبياً جعلهم يرون فيه إماما هادياً لا ينطق عن الهوى ، بل يقذف بالحق على الباطل فيدمغه ! ! وقد تعجب مسلمة كيف يتحدث الشيخ عن أمير المؤمنين قبيل الفجر فى محرابه ، والوقت وقت صلاة وتسبيح ، إلا أنه جمع أنفاسه ، وأخذ يستمع فى حذر ، فطرقت سمعه هذه الكلمات يقولها الشيخ فى ضجر وامتعاض . لقد خفتُ أن يأخذ الله دمشق المسكينة بذنوب يزيد ! ! لقد خالف سنة أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز فاعتزل المسجد ، فما يلمّ به حتى يوم الجمعة ! وقد تطلع إليه الناس ، وانتظروا قدومه ، فلم يجدوا غير الإهمال والاستخفاف ، وليته احتجب عن المسجد وتفرغ للقاء أصحاب المظالم فى قصره ، كما كان يفعل من سبقوه ، بل أوصد الباب فى وجوه الطارقين ، ورجع الوافدون من شتى الأمصار حائرين خائبين ، وكانوا يحملون عن أحوال بلادهم وولاتهم مالا بد أن يبلغ سمع أمير المؤمنين ، وكم تحملوا الليالى ذوات العدد فى سفر لاغب يعانون لهيب الظهيرة وبرد الليل آملين

أن يبسطوا ظلاماتهم إلى خليفة رسول الله !! وولى أمر المؤمنين ، ولكنهم — وأسفاه — يرجعون بصفقة المغبون نادمين !!

فقال التلميذ فى ألم : لقد علمتُ يا سيدى الجليل أن يزيد قد اشترى منذ شهور جارية مغنية سماها (حبابة) وهى على ما يقال بارعة الغناء ساحرة الجمال، وقد ملكت عليه مشاعره ، فعاقته عن شهود الجمعة بالمسجد ، بل شغلته عن النظر فى المظالم ، وتأمل أمور المسلمين !

فردّ الشيخ فى أسف حزين : لقد ترامى إلىّ هذا النبأ ، ولم أشأ أن أصدقه حتى حدثنى به حاجب أمير المؤمنين ليلة أمس ، وقد ضاعف أسفى أن يزيد يسرف فى الشراب، ويتمادى فى العبث تماديا يوشك أن يضيع به سطوة العرب، ويرتجف له كيان المسلمين ، ولئن لم يرحم الله أمته بخليفة صالح كعمر ابن عبد العزيز ، فيالعظم النكال ، وبالسوء المصير .

عضّ مسلمة بن عبد الملك شفتيه متأوها ، فقد أحزنه أن يشيع أمر أخيه ، فيتحدث به كل إنسان، كما أمضّ نفسه أن يكون بين رجال القصر من يذيعون الأسرار ، فتنتشر بين العامة دون خفاء ، ورأى من الحزم أن يخفى نفسه فلا يشعر أحد بوجوده كيلا يقع مع الشيخ فى حرج إذا تحدث الناس بأنه كان جالسا على خطوات منه خلف المنبر !! فأخرج منديله ، وألقاه على وجهه ، ثم التف فى عباءته ، وقام يصلى الفجر خلف الإمام دون أن يفطن إليه حتى جاره الذى صافحه بعد الصلاة ، ثم ذهب إلى بيته متفكراً ، وفى نفسه شجون ! وبين جنبيه هواجس مشتجرات !!

ولم تكد تشرق الشمس على المدينة حتى اتجه إلى قصر الخلافة ، وطلب مقابلة أخيه ، فقال الحاجب فى تلطف : إن أمير المؤمنين فى خلوته الهادئة ، وقد رفض أن يقابل أحداً اليوم ، ونبّه على ذلك !! فماذا أصنع !!؟

فأطرق مسلمة مليا ، ثم أحضر ورقة صغيرة ، وخط بها رجاءه الخاص فى سرعة المقابلة لأمر ذى بال ، وقام الحاجب بإنفاذها دون إبطاء !

كان الخليفة يثق فى أخيه تمام الوثوق ، فقد علم من بسالته فى الفتوح وبلائه فى الجهاد ما قربه من نفسه ، وأدناه إلى قلبه ، كما أنه لا يخاف منه منازعته فى الحكم ، ومنافسته فى السلطان ، لأن أمّ مسلمة غير عربية ، وقد شاء أمير المؤمنين عبد الملك ألا يلى الأمر من أولاده غير العربى الصريح !! وأخذ الخليفة يتساءل بينه وبين نفسه عما دفع أخاه إلى اللقاء العاجل ، دون تريث ، أجاءته الأنباء عن ثورة شبت فى بعض الأصقاع ، ورأى من الحكمة أن يسارع بإخمادها ، قبل التمادى والاستفحال ! إن الخواطر لتترادف عليه فى خلوته اللذيذة مع صاحبته (حبابة) وإنها لترى فى قسمات وجهه ، واختلاف ملامحه ما يدفعها إلى سؤال أمير المؤمنين عن فحوى الرسالة ! فتعلم أن مسلمة أخاه يريد المقابلة العاجلة ، لأمر جلل ! فتبسم إلى أمير المؤمنين فى (دلال) ! وتقول متضاحكة : لا بأس يا مولاى فيومنا طويل مديد !

ويتقدم الخليفة إلى ردهة الاستقبال ، فيسلم على أخيه فى أدب ، ويجلس إلى جواره منتظرا ما عسى أن يبدأ به الحديث ...

فقال مسلمة فى صراحة : لماذا يتخلف أمير المؤمنين عن أداء الجمعة فى المسجد الأموى مغيّرا ما سار عليه آباؤه وأجداده من الخلفاء !

فدهش يزيد لسؤال لم يكن يتوقعه ! ولكنه أظهر الثبات ، ولجأ إلى الحيلة فقال : إن العامة من الرعية يرهقوننا بالتزاحم والتهافت ، حتى نملّ ونسأم ، وأنا أتحاشى لقاءهم فأصلى فى القصر بعيداً عن الغوغاء ! !

فردّ مسلمة : وأى جلال يتم لأمير المؤمنين إذا أصبح فرداً عاديا ، لا يتطلع إليه أمل ولا يزدحم فى طريقه أفواج ! ؟

فسكت يزيد كالحائر : ووعد بصلاة الجمعة المقبلة ، ليجرى على سنن الآباء ، وقد ظن أن الحديث سيذهب فى غير هذا الطريق ! ولكن مسلمة فاجأه بقوله:

لقد أوصد أمير المؤمنين أبواب قصره أمام الناس ، فأصبح المسلمون يفدون من العراق ومصر والمدينة والهند ، ثم يرجعون بآمالهم كما جاءوا ، وكأنه ليس فى دمشق خليفة يقابل الرعية ، ويحكم بين الناس !

فتململ يزيد كالمتضايق، وقال فى ضجر : لقد كرهتْ نفسى مقابلة الوافدين، وطلبت من صاحب الحراسة أن يجمع مختلف الشكايات ، ثم يعرضها علىّ دون حاجة إلى مشاهدة الرعاع ! !

فتطلع مسلمة فى حزم إلى أخيه ثم قال . . . وماذا يقول أمير المؤمنين فى حديث الرعية ، وقد أذاعوا فى كل مكان أنه ترك أمور الدولة وتفرغ لجارية مغنية ، يساقيها كؤوس الصبابة وتسمعه أعذب الأصوات، حتى ليس له مأرب فى غير النساء والغناء ! ! فرد الخليفة فى خجل حائر : هذا أمر لا يعرفه غير حراس القصر وخدمه ، وألسنتهم مقيدة مكبلة ! فكيف يشيع ويذيع !

فتعجل مسلمة يقول،وقد ارتفع صوته قليلا: لقد سمعت ذلك بأذنى فى المسجد الأموى فجر هذا اليوم، وكنت أؤدى الصلاة متبكراً ، ولم أصدق القوم بادىء ذى بدء ، ولكننى تحريت فعرفت أنك ـ سامحك الله ـ تحتجب عن الوفود ، وتنقطع فى خلواتك عن الطراق . . !

فرد يزيد فى اضطراب ... كل ذلك قد كان !! ثم تقطعت الكلمات على لسانه فتلعثم تلعثما مرتبكا ، وعاوده بعض التماسك ، فقال فى خفوت : وأنا أمام هذه الغانية الفاتنة دائر حائر لا أستطيع أن أفارقها لحظات !

فقال مسلمة فى دهشة ! ومَنْ مِن أعدائك قد قذف بها إليك ليلهيك عن أمرك فيتزعزع مكانك ، وتسلقك الأفواه الشامتة بقوارصها الحداد !

فأسرع يزيد يقول فى ضجر ؟ إن سعدة زوجتى قد أهدتها إلىّ وما أظن أنها من الأعداء !

فنظر مسلمة نظرة ذاهلة ، وقال فى تحير : لقد حرتُ والله فى أمور النساء ! زوجة أمير المؤمنين تتنازل عن مسرتها به ، فتهديه جارية لعوبا ، تحتل مكانها من قلبه ، وتعصف بكيانه الرسمى كخليفة للمسلمين ! فيصبح مع جاريته مضغة الأفواه ، وحديث السوقة والخواص !

فقال يزيد فى إطراق مؤسف: ذلك ما كان ، وسأدعو سعدة إليك لتعترف بما أسلفت إلىّ من هبات ! ثم صفق بيديه فى ضيق ، فبادر خادمه بالحضور ، فطلب أن يدعو زوجته إلى لقائه ! على أن يعلمها بوجود مسلمة ، لتتأهب إلى اللقاء !

كانت سعدة بنت عبد الله تعرف مكانة مسلمة فى قصر الخلافة ، ومنزلته من أمير المؤمنين ، فارتدت حلتها المحتشمة ، وأسرعت بالحضور لتجد يزيد زوجها مطرق الرأس ، ساهم الوجه ، ومسلمة كالنمر الغضوب ، يدور بعينيه فى الحجرة ، ثم يسلم عليها فى حزم حين تقبل على مجلسه ! ولا يترك الفرصة لأخيه بل يقول علمت أن زوجة أمير المؤمنين قد هدمت سعادتها بيديها حين أهدت إلى يزيد (حبابة) فاحتلت مكانتها من قلبه وشغلته عن الرعية والسلطان !! فتأوهت سعدة تأويهة حارة ، ولم تجب ! ونظر مسلمة فوجد دمعة حائرة تلمع فى عينيها السوداء ، ثم تسيل على خدها ناطقة بالشجن الذائب والألم المرير ، فقال مسلمة فى إصرار : لا أحب أن أسأل فتجيب الدموع ، وإنما أريد كلاما بكلام !!

فأخرجت سعدة منديلها الحريرى المطرز ، ومسحت مسيل العبرة ، ثم قالت فى جهشة حائرة : لقد وجدته يا عماه يلهج بذكرها صباح مساء !! ويتحدث عنها كما يتحدث عن أشهى الأمانى وأعذب الأحلام ! فقلت فى نفسى : إن البعيد حبيب مرغوب ، ولئن عاشرها معاشرة الخليط المجاور ، لتزولَنّ بهجتها من عينيه ، فدعوتُها من المدينة على عجل ، حين ارتقى ذروة الخلافة ، وأهديتها إليه بهذه المناسبة ، وانتظرت ، فوجدت القرب لا يمحو حبا يشتعل ، بل يوقد اللهيب ولا تمر الأيام على غير التمادى واللجاج !

فهز مسلمة رأسه ثم قال : وأين رآها يزيد حتى أخذ يلهج بذكرها كل صباح ومساء !! فتنهدت سعدة تنهيدة حارة ، وقالت ـ وقلبها ينفطر ـ لقد حضر إلى المدينة ليصحبنى من بيت والدى حين زففت إليه فى عهد أمير المؤمنين سليمان بن عبد الملك ، وقد أقيم لذلك عرس حافل تتحدث به الأحقاب ، وغنت حبابة إذ ذاك ، ورآها أمير المؤمنين فجنّ بها صبابة ، وحدثنى عنها بشغف واله حتى فى الساعة الأولى من لقائنا فى المدينة ! وما زال على توالى الأيام يهذى بها ، وكأنه يطلب مستقراً لقلقه الثائر بالحديث عنها فلما رأيت ما يعتريه من الوجد ، جازفت بشرائها ، وقدمتها هدية حبيبة إليه ، آملة أن يروى من لقائها ظمأه حتى ينقع فيعاف ، فمرت به الأيام ـ والهفتاه ـ دون ارتواء .

ثم سكتت فجأة ، فنظر يزيد لأخيه فى تطلع ، وقال : هذا والله ما كان دون تزيد وادعاء !! وشاهد مسلمة ما يرتسم من ملامح حزينة على وجه سعدة ، فطلب إليها أن تذهب فتستريح !!

خلا الأمير إلى الخليفة . . وقال له فى حزم صريح ، أنتَ لست مِلْكاً لنفسك يا يزيد ، بل أنتَ مِلْكٌ للدولة التى تملك ، والأسرة التى فوضت إليك رئاستها ، ولئن تمادى بك الشأن على ما أرى لتزلزلن بعرشك القوائم الثابتة

وليتطامن إلى مكانك من يرى نفسه أولى منك بالسلطان ! وأنت لا تجهل ما يتهددنا من الثوائر بالكوفة وخراسان ، وإنّ شائعة تشيع فى الأمصار عن احتجابك عن المسجد يوم الجمعة ، وانقطاعك إلى قينة متهتكة ، لكافية وحدها أن تخرج حولك الصدور ، وترسل السيوف من الأغماد . . .

قال يزيد فى حسرة المرتبك اللهيف : وماذا أصنع يا أخى ! وأنا لا أستطيع السلوان وقد حاولته مرات فبؤت بالخذلان !

فصاح مسلمة كمن يتعجب لأمر مشين ! ! يا سبحان الله ! ثم كتم غيظه ، وقال : كُنْ رجلا جديراً بالملك يا أمير المؤمنين ، وابدأ بأمرك فاذهب إلى المسجد من الغد ، وانقطع عن صاحبتك فلا تخلو إليها غير ساعة أو ساعتين فى اليوم ، إذا ضعفت : ثم خذ نفسك بالحزم والتماسك ، فإذا مرّت الأيام على تغاضيك وتصبرك ، استحال التطبع إلى طبع ، فتذوق برد السلوان .

قال يزيد فى حيرة : سأحاول كل شىء وليتنى أستطيع .

— ٢ —

انصرف مسلمة من القصر ، وخلا يزيد إلى نفسه فلم يتصل بأحد ، ولم يسرع إلى (حبابة) كما توقعت أن يجىء ، فأدركت بفطنتها الحصيفة أن الجلسة كانت تدور حولها ، وأن استدعاء سعدة على عجل ورجوعها بعد فترة ما كان لشأن من شئون الملك ، ولكنه لأمر القصر وحده ، وماذا فى القصر من شئون غير أمرها مع يزيد ! ! فأغضت على غيظ مبرح ، واختلج فى صدرها من الهواجس ما شغل بالها شغلا شديداً ، ولم تشأ أن تترامى على قدمى سيدها متذلّلة ، فتريق كبرياء الجمال ، وتهدر جلال الفتنة ! بل أمسكت على ما بها من الأشجان ، ومضى اليوم ولم تروجه الخليفة ثم أصبح صباح الجمعة ، فرأت

من اصطفاف الحرس ، وتهيئة الجند ما علمت به ذهاب الخليفة إلى المسجد الأموى ! فاستحال شكها إلى يقين أكيد ، وثبت لديها أن النصيحة للعاقلة وُجهت إليه بالإقلاع عن اللهو ، والإنصراف إلى المهام ، فاكتأبت نفسها اكتئابا أذاب قلبها المصهور، وفى لحظه من لحظات ضعفها اليائس تركت ثباتها المتكبر وأخذت عودها،وتقدمت إلى حجرة الخليفة وقد تهيأ للخروج بموكب الجمعة إلى المسجد ، فغنت فى نغم حزين وترجيع شجىّ :

ألاَ لاَ تلمه اليوم أن يتبلدا ... فقد غلب المحزون أن يتجلدا

إذا أنت لم تعشق ولم تدر ما الهوى ... فكن حجراً من يابس الصخر جلمدا

فاضطرب يزيد إذ سمع الصوت الساحر ، ونظر فرأى وجه الغانية العاتبه جذابا يستميل إليه كل ناظر ! ولمح فى محياها الغاضب ثورة زادت سحره فوشته بظلال فاتنة من الروعة والحسن ! وأخذ ترجيعها الآسر بمجامع قلبه ، فترنح كالمتخاذل وثبت فى مكانه لا يريم ، ثم صاح فى غضب : صدقت يا حبابة قبح الله لائمى فيك ! يا غلام ، مُرْ مسلمة أخى فليصلّ بالناس ، ثم نهض إلى معبودته فأخذها بين أحضانه وتقابلت دموعهما فى شغف لهيف ! ووصل النبأ إلى مسلمة ، فتوجه كئيبا محزونا إلى المسجد ، ورجع بعد الصلاة حائراً قلقاً يتململ من الضيق ! ولم يستطع البقاء فى بيته فحملته قدماه ثانية إلى قصر الخلافة فأغفل لقاء يزيد ! إذ لم يجد فائدة عملية فى محادثته ، وطلب الإذن على سعدة ، فأخذت حشمتها الرزينة ، وتوجهت إليه فى أدب مهذب فقال فى ابتسام لقد ضاعت النصيحة سدى يا أختاه ، وضل صوابى فى أمر يزيد ، إذ تقول عليه الناس بما لا أطيق ! ولاكت أحاديثه الأفواه . .

فقالت سعدة فى غيظ : لقد توقعتُ ذلك يا سيدى ، فهيهات أن يلتفت أخوك إلى واجب أو يعتصم برشاد !

فأطرق مسلمة ثم قال وماذا نصنع الآن ؟ ليست المسألة من شأن أخى وحده ولكنها من شئون الناس !

فنظرت سعدة كالحائرة ثم قالت : لقد فكرتُ فى المأساة ليالى طويلة ، حتى جافانى النوم فكنت أصل المساء بالصباح على غير رقاد ، ثم اعتزمت أمراً وسأنفذه لأنظر ما يكون !

فرفع مسلمة رأسه مهتما وقال فى حزم : أوبنى ما عزمت عليه لنتبادل المشورة فيسهل الإنقاذ ! فردت سعدة فى انفعال : لا أكتم عنك أنى جد ناقمة على (حبابة) ولا بد من إزعاجها فى مشاعرها لتذوق بعض ما أكابد من ويلات ! وسواء رفضت يا سيدى أم قبلت ، فسأبعث إلى المدينة لأشترى سلامة القس سيدة الغناء هناك ، ولها جمال ودلال ! ثم أهديها إلى يزيد فتأخذ من قلبه بعض ما تشغله حبابة من فراغ كبير !

فابتسم مسلمة لما أدرك من كيد النساء ، وقال فى هدوء : ولكنك تطفئين النار بنار مماثلة ، كمن يداوى شارب الخمر بالخمر ! وأنا أريد أن أطفىء النار بماء بارد فيحيلها إلى رماد تذروه الريح !

فردت سعدة فى أسف : لن تجد السبيل إلى الماء ، وقد حاولته فتعذر . . .

قال مسلمة : لست موافقا على ما تقولين فابحثى عن سلاح جديد .

فصاحت الزوجة فى غضب مكتوم : أصارحك أنى بعثت فعلا بمن يشترى سلامة من المدينة ويأتى بها إلى قصر أمير المؤمنين ، وقد أفهمت والى المدينة : أن هذه رغبة يزيد نفسه ، ولا شك أنه سيبادر إلى التنفيذ !

فدق مسلمة كفا بكف ، ثم قال فى تساؤل : ومن أدراك أن سلامة هذه تفوق حبابة في روعة الغناء وسحر الجمال ؟

فأجابت سعدة : لقد علمت أنها فتنت جميع الناس بالمدينة ، على كثرة من بها من ذوات الصباحة والغناء - حتى أن الشيخ الوقور عبد الرحمن بن أبى عمار المشهور بالقس لورعه ونسكه قد ترك تسبيحه وهام فى محاسنها الفاتنة ، فنظم أرق الغزل ، وأبدع الأبيات !! ثم سكتت لحظة واستطردت تقول : كما علمت أن سلامة أديبة شاعرة تعرف أخبار العرب ، وتنظم سواحر القول ، وتحفظ طرائف التاريخ وتلم بالأنساب ، فإذا حدثت أمير المؤمنين وشاهد من حصافتها وعلمها ما شاهد ! فستشغله كثيراً عن صاحبته الجاهلة ، فتعرف لوعة الغيرة وثورة الأشجان .

قال مسلمة فى عجب لقد بالغت يا سعدة فى أمر سلامة كما أظن ، فلم أرَ من النساء من تخصصت في الشعر والأنساب والتاريخ !! ماذا بقى إذن أمامها غير الفقه وتفسير القرآن والحديث !

فأجابت سعدة متعجلة !! نسيتُ أن أقول إنها ألمت إلماماً جديا بالفقه والحديث ! فقهقه مسلمة ساخراً وقال : أظنك تعلمين أن غناء الجارية وفقه القرآن لا يجتمعان !!

فردت سعدة فى تأكيد : إن عثمان بن حيان والى المدينة قد اعتزم مرة أن يطهرها من طوائف المغنين والمغنيات ! فاحتال ابن عتيق حتى جمعه بسلامة ، وخاض معها فى شجون من الفقه والسيرة والحديث فبهرته بفهمها الدقيق وقال : لن أخرج من المدينة عالمة فقيهة !! فقال ابن عتيق منتهزا رضاه عنها ! « إذن فاترك الباقيات كيلا يقول الناس إن الوالى أحب سلامة القس!! فبادر بالإذعان

وترك الجميع، فأطرق مسلمة قليلا ثم قال فى غضب : أجاءك ذلك كله عن المدينة يا ابنة عبد الله مع نزوح الدار ! ؟

فقالت سعدة : ولم لا يأتنى كل شىء عن المدينة وبها أهلى ، وفى ملاعبها البهجة ترعرع صباى وتنسمت أريج الحياة ! !

فتأوه مسلمة تأوها يدل على همه المتماوج ! وقال فى أسف مبرح : لقد عالجت المسألة من زاوية الغيرة وحدها يا سعدة ! ولعل الله يوفقنى إلى علاجها من طريقها الصحيح فأستأصل الخطر على أمير المؤمنين !

— ٣ —

وشهد قصر الخلافة بعد أيام مطربتين بارعتين تجلسان فى ردهته الفسيحة إحداها عن يمين يزيد والأخرى عن يساره !! وكانت حبابة أجمل وجها وأبهى طلعة ، وكانت سلامة أشهى حديثاً وأوسع معرفة وأخف سحرا ! ! وكأن اجتماعهما معا قد كمل نقصاً كبيراً كان يزيد يلتمس تمامه حتى عثر عليه !! فزاد انصرافه إلى صاحبتيه ، وأنس بهما أنسا فتح أمامه مباهج الأمل ومهد دونه طرق النشوة والإمتاع ، وانتظرت سعدة أن تشب نيران الغيرة بين الجاريتين المتنافستين على قلب أمير المؤمنين ، فلم يصدق ظنها فيما توقعته !! فقد كانت حبابة تجد من أنس يزيد ما أنساها مرارة المنافسة والتزاحم ! وكانت سلامة تعرف أنها طارئة مقتحمة ، فأفسحت صدرها وأغضت عما تندّ به صاحبتها من تعريض يصل حيناً ما إلى تصريح بغيض ! وكأنها علمت ما يضمر يزيد لحبابة من هوى صادق فلم تشأ أن تتكدر الصفو بنزاع أو خصام !! ورأت حبابة حلم صاحبتها وسعة صدرها وجمال صفحها ، فأنست إليها بعد نفار . واطمأنت إلى زمالتها المحتومة !! ولا سيما وهى تعرف أن فى نزاعهما ما يحرج صدر أمير المؤمنين ، وذلك صعب كريه ! ومرت الليالى سريعة وكلتاهما

تأخذ من أسباب الترف ووسائل البهجة بأشهى نصيب وأوفاه ، حتى شغلتا يزيد عن كل شيء ، فأصبح منهما فى سكر لا يفيق وكأن القدر أراد أن يضع حدا لهذا العبث المستطيل ، فقد امتد به التهوز امتدادا أحرج الأقارب وأقر عيون الشامتين ! فوقعت الكارثة الداهية إذ جلست حبابة تأكل عنقوداً من العنب فشرقت بحبة كبيرة كانت بها منيتها العاجلة !! ونظر الخليفة فإذا كنزه الثمين ينفلت بغتة من يديه ، فطار صوابه وأبدى من الهلع ما جاوز كل حد ! حتى أمر بعدم دفنها ! وظلت فى قصر الخلافة مسجاة على سرير الموت ثلاثة أيام !! وصاح ندماؤه فى أسف « لقد صارت جيفة بين يديك يا أمير المؤمنين » فأذن بدفنها والزفرات تتأجج فى صدره وعاش بعدها أياما معدودات ثم قسا عليه الحزن ، فأسلم أنفاسه متحسرا لهيفا وفارق الحياة .

أما سلامة فقد قدّر لها أن تبكيه بدموعها الساخنة كما قدر عليه أن يبكى صاحبتها الراحلة !! والدنيا غرائب ومفاجآت !!

أكول نهم

كان العباس بن الوليد بن عبد الملك يتوجه إلى قصر الخلافة لمقابلة شقيقه يزيد بن الوليد بن عبد الملك أمير المؤمنين فرأى بباب القصر رجلا أسمر عملاقا إذا رأس ضخم ، ومنكب عريض ، وإن لحمه ليتكتل على جسمه ، فتتخيل حين تراه أنه قطعة هائلة من الجبل تجرى فيها الروح وتدب بكيانها الحياة ..

فسأل فى خشية عن هذا الأسمر المخيف فقيل إنه فارس الصحراء هلال ابن أسعر فقال العباس وماذا تقدم به إلى أمير المؤمنين ؟ فقال صاحب الحرس لقد علم الخليفة بغرائبه المدهشة فأحبّ أن يراه وكتب إلى عامله بالمدينة فبعث به إلى دمشق ليحقق مطلب أمير المؤمنين . . .

فسكت العباس ولم يتكلم ثم تقدم فى صمت حتى أخذ مجلسه — دون استئذان — فى جوار أخيه ، وابتدأ يقول فى تبرم ظاهر : لقد كنت يا يزيد تعيب على سلفك الوليد بن يزيد انقطاعه عن شئون الخلافة وانصرافه عن المظالم إلى جماعة من ذوى البطالة واللهو يشربون الخمر وينشدون الشعر ، فكيف تنصرف أنت إلى ما انصرف إليه الوليد ، وتبعث إلى المدينة متصيداً شذاذ الآفاق، وصعاليك البداة لتقضى معهم يومك الطويل دون نظر إلى ما يقع على كاهلك من أثقال وصعاب !!

فابتسم يزيد بن الوليد فى دهاء وقال يستعطف أخاه : أراكَ لا تزال على دأبك فى ازدرائى وتهجينى ! وإنى لأتحمل منك جميع ما تقول . . وقد ذهب مصرع الوليد بذكره ولكنك دائما تعيرنى به وكأنى ارتكبت حدثا هائلا حين أعلنت الثورة عليه ، وسعيت فى مهلك مُستهترٍ خليع .

فقال العباس في غضب : لن أغتفر لك هذا مهما اغتفره الناس ، فقد فتحت بثورتك الظالمة باب المروق والعصيان فى بنى مروان ، ولست آمن من ينتقض عليك فى لحظة من اللحظات ، فيجمع إلى خلعك الكتائب والجيوش ! وإذ ذاك تشرب من كأس أرغمت على احتسائها سواك .

فقال يزيد ملاطفا : رفقك يا أخاه فأنا أعلم أنك بايعتنى مكرها غير طائع ، ولولا ما اضطرك إليه الجمعُ من مبايعتى لتفرقت الكلمة وتحزّب الناس ، وأنا أناشدك الله والرحم أن تعفو عما سلف ، فقد كفى ما كان . . .

فأطرق العباس ! طراقة العابس الحزين ، ثم قال فى حزم .

لقد اضطررتُ أمام الناس أن أتناسى جريرتك الشائنة . . ولكنى مضطر إلى نصيحتك بأن تقلع عن ذوى البطالة واللهو ، وتنظر فى أعمال الخلافة ومصاعب الدولة ، ليطمئن إلى عهدك العرب والمسلمون ...

فقال يزيد فى ابتسام . . إن عين الغضب نائمة يا عباس ! علم الله أنى أصل الليل بالنهار فى استطلاع الشئون ، وتصريف الأمور ، حتى عرف العرب عنى كلّ محمدة تمدح ، ومضى مثلهم الشارد يقول : الناقص والأشج أعدلا بنى مروان . . .

فتأوه العباس تأويهة متبرمة وقال : خدعتك الألفاظ يا يزيد . . ولقد كان من قبلك من الخلفاء يمدحون فلا ينخدعون ، بل إن معاوية بن أبى سفيان كان يسمع الثناء فيستشف من خلاله قوارص الهجاء ، ثم يميل إلى الإغضاء .. وأنت فيما أرى يغرك المديح الزائف والثناء الخداع .. يا يزيد .. لست أغشك ولكن أنصحك .. وإنى أخوك ..

فقال يزيد فى سهوم : أتذكر لى شيئاً أغضبك منى اليوم لنضعه على بساط النقاش ! !

فرفع العباس رأسه وقال هذا الصعلوك الذى بعثت إليه ، لتنصرف به عن شئون الخلافة ، فيسمعك القصص وينشدك الأشعار .. ! وكأنك صاحب رواية وأخبار لا مصرف دولة وأرواح . . .

فنظر الخليفة إلى أخيه ـ وهو يحاول أن يكتم ما أثار حديثه فى نفسه من امتعاض ـ ثم قال فى أدب ودود . إن الرجل الذى تعنيه فارس بطل من فرسان الصحراء ، وقد نقل أمير المدينة إلىّ عنه من غرائب القوة وعجائب البسالة ما أحببت به أن أراه . وأنا لا أصاحب المخنثين والخلعاء أو أستطيب الكؤوس المترعة من الشراب أو استقدم المحصنات والمتهتكات كما كان يفعل الوليد !! فماذا تقول فى خليفة يعلم عن أحد رعاياه ضروبا من الفتوة والبطولة فيستدعيه ، ويعرف له حق التضحية والاستبسال ، فتراجع العباس متأثراً .. ثم قال لئن كان ما تقول من أمر الرجل فإنى أحب أن أستطلع أنباءه معك !! فأرى أى خارقة نادرة يأتى بها هذا المصارع العملاق . .

فتهلل وجه الخليفة فى بشر ثم صفق بيده . وأذن لهلال فى الدخول لساعته ، ومثل الفارس بين يديه فى ثبات واعتداد . . .

فقال يزيد فى تخابث .. ما اندفاعك إلى الشر يا هلال ، فقد أثرت النفوس وأضرمت الأحقاد ، فابتسم العملاق الضخم ، فظهرت أسنانه متراصة حادة كأنها تشى بالنهش والافتراس ، وقال فى صوت أجشّ : أى شر تعنى يا أمير المؤمنين .

فقال يزيد مسرعا ، لقد نقل إلىّ أمير المدينة أنك هجمت على العبد الرومى سحيم ووضعت رأسه بين إبهاميك فسقط على الأرض مغشيّا عليه فى ذهول ..

فنظر هلال نظرة فاحصة ، وقال أو لمْ يسرد عليك الأمير قصه سحيم بالتفصيل ، علم الله أنى كنت راغباً عن الصراع .. ولكن الوالى قد اضطرنى

إليه ، فأكرهت على المبارزة وانتقمت للعرب من هذا الجبار .. فتبسم العباس ابن الوليد ، وقال لهلال سألك أمير المؤمنين أن تذكر كل شيء بالتفصيل ، فكيف تميل إلى الإجمال .. كيف رأيت سحيما ونازلته بمشهد من الناس !!

فقال هلال فى اعتداد .. لقد قدمت المدينة ذات مساء فلم أزل أضع عن إبلى وعليها أحمال التجار حتى أخذ بيدى ، وقيل لى : أجب الأمير ، فقلت لهم ويلكم إبلى وأحمالى ، فقيل لا بأس على إبلك وأحمالك ، وانطُلِقَ بى حتى ذهبت فسلمت ، ثم قلت للوالى : جعلت فداءك إبلى وأمانتى ، فقال نحن ضامنون لها حتى نؤديها إليك ، قلت فما حاجة الأمير إلىّ ، فقال أرأيت هذا الرجل الأصفر ، وأشار إلى إنسان جواره ، فما رأيت يا أمير المؤمنين قط أشد خلقا منه ولا أغلظ عنقا ، وما أدرى أطوله أكثر أم عرضه .. ثم تابع الوالى يقول إن هذا العبد ما ترك بالمدينة عربياً يصارع إلا صرعه ، وقد بلغنى عنك قوة ، فأردت أن يجرى الله صرع هذا العبد على يديك فتدرك ما عنده من أوتار العرب ، فقلت للأمير إنى تعبٌ نصِبٌ جائع ، فإن رأى الأمير أن يدعنى اليوم حتى أضع عن إبلى وأؤدى أمانتى وأريح يومى هذا ثم أجيئه مع الغد فليفعل ، فقال لأحد أعوانه ، انطلقوا معه فأعينوه ، ففعلوا جميع ما أمرهم به وبتّ ليلتى تلك بأحسن حال شبعاً وراحة وصلاح أمر ، فلما كان من الغد قدمت وشددت بعمامتى وسطى ، وجاء العبد فجعل يدور حولى ويريد ختلى وأنا منه وجل ولا أدرى كيف أصنع به ثم دنا قريباً فشج جبهتى بظفره شجة نالت منى أصعب منال فغاظنى ذلك ، فجعلت أنظر ما أقبض منه ، فما وجدت شيئاً أصغر من رأسه ، فوضعت إبهامىّ فى صدغيه ، وأصابعى الأخرى فى أذنيه ثم غمزته غمزة صاح منها قتَلتَنى قتلتنى فصفق الحاضرون من شهود الأعراب ووجهاء المدينة ، وقال الأمير مبتسما ، إغمس رأس العبد فى التراب ، فقلت له ذلك

عليّ فغمست والله رأسه فى الثرى ووقع مغشيا عليه حتى ضحك الوالى وأمر لى بجائزة وكسوة وانصرفت ! !

فضحك يزيد مرتاحا وقال فى احتيال : كأنك يا هلال تسلك مسالك صعاليك العرب من قطاع الطريق ومغتالى الأرواح ! فتعيدُ سيرة تأبط شرا وعروة ابن الورد ومالك بن الريب !

فتجهم هلال تجهما صار به وجهه قطعة من الليل وقال فى غضب .

لست صعلوكا ولا قاطع طريق يا أمير المؤمنين وإنما أنا أعرابى أسير وراء أبلى ، وأذهب بما عليها من السلع إلى أصحابها فأعيش بأجر النصب والتعب والـكلال . . .

فقال العباس إن مثالك فى قوته وبأسه لابد أن يتجبر على الناس ، فيخيف الآمن ويقطع السبيل فى صحراء تيهاء ذات منادح وشعاب ! !

فنظر هلال نظرة الواثق المعتز وقال : شهد الله لم أبدأ أحدا بشر ما دون أن أجد منه العدوان . . وكم مرّ بى من أناس فاستخفوا بمرقدى وانهالوا علىّ بالسياط . . وإذ ذاك أعمد إلى الانتقام .

فقال يزيد فى عجب : يضربك الناس بالسياط ! ! ومن يقدر على ذلك !

فأجاب هلال فى ثبات : واعينيه بريق آخذ كاد يفزع له يزيد فى مجلسه ! لولا ما حوله من حراس يمتشقون السيوف ويُصوّبون الرماح .

كنتُ يوما بالصحراء وقت الظهيرة وقد احتدمت الهاجرة احتداما يشوى الوجوه ويكوى العظام فعمدتُ إلى عصاى وطرحتُ عليها كسائى واحتميتُ بالظلّ ، فمر بى رجلان أحدهما من بنى نهشل والآخر من بنى نعيم وهما أشد بنى تميم بأسا وعراما ومعهما أنواط من تمر هجر ، فحين وقع نظرهما علىّ

ناديا : يا راعىَ الإبل أعندك شراب تسقينا قلت وأنا نائم لا أتحرك ، عليكما الناقة البيضاء فأنيخاها فإن لبنها لكثير فاشربا ما بدا لكما ، فقال أحدهما : ويحك أيها العبد انهض فأت باللبن فقلت اذهبا لتشربا ، فقال أحدهما : إنك يا ابن اللخناء لغليظ الكلام قم فاسقنا ثم دنا منى وجاء الآخر فقال مثل قوله ودنا فلا والله ما اكترثت ، وتقدم أحدهما فأهوى علىّ ضربا بالسوط فتناولت يده وأنا نائم ورميتها تحت يدى ، وضغطتها ضغطة صاح منها صارخا ونادى صاحبه أدركنى فقد قتلنى !! فدنا يصنع ما يصنع فأخذت يده وفعلت بها ما فعلت بأختها ثم أخذت برقبتيهما فجعلت اصكهما صكا لا يستطيعان أن يفتقما منه فقال أحدهما أنت هلال ولا يفعل ذلك سواه ! قلت أنا هلال فطفقا يبكيان فرحمتهما وتركت لهما العنان ...

فضحك يزيد بن عبد الملك ثم نظر إلى أخيه العباس فى تطلع وقال يخاطب هلالا والله لجدير بك أن تسمّى أسد الصحراء ! ولكن ماذا تصنع بها إذا طال عليك النهار ، ولج بك الصمت فلم تر من تأخذ معه بأطراف الحديث !!

فقال هلال فى أدب إن الشعر رفيقى المؤنس يا أمير المؤمنين فأنا أحفظ القصائد الطويلة وأتلهى بإنشاءها إذا انفردت دون الناس .

فقال العباس فى عجب : يا سبحان الله ! أيمكن أن يحفظ هذا الأصم الأصلد رقائق الأشعار وطرائف الأراجيز .

فنظر إليه هلال نظرة ناقمة كاد العباس يتحسس منها ريح الخوف لولا أنه فى مجلس أمير المؤمنين ثم قال فى اعتداد أحفظ الشعر أيها الأمير وأنظمه فيذيع بين الناس !!

فقال العباس فى دهشة : وشاعر أيضا .. هذا شىء عجيب ! ! ألم يقل أمير المؤمنين أنك تسلك مسلك عروة بن الورد وتأبط شرا ومالك الريب ! وكلهم شعراء .

فردّ هلال فى حزم : أسلك مسلكهم في الفتوة والبسالة ونظم القصائد ورواية الإشعار ولا أسلك مسلكهم فى السطو والاغتيال ونهب الطريق . . .

فضحك يزيد ! وقال هو ما تقول يا هلال فأسمعنا بعض ما نظمت من المديح . .

فأطرق هلال برأسه وقال فى أدب : أصدقك القول يا أمير المؤمنين إذا أعلنت أنى لم أنظم بيتا واحداً فى المديح فلست علم الله من الذين يتخذون الشعر مطية كسب وآلة استجداء . . ولخيرلى أن أكون أبكم أعجم من أن أجعل لسانى منكسراً ذليلا يستجدى للمال ويتكسر للعطاء . .

فرفع العباس رأسه فى بشر وصاح حيّاك الله من شجاع ذى همة واعتلاء .. علم الله ما تأثرت بشجاعتك كما تأثرت بنفسيتك ! ! ولأنت خير من يستدعيه أمير المؤمنين من أقاصى الأرض فيجزل إليه الحباء . . ويفسح له المكان .

فضحك يزيد ثم قال يخاطب العباس : كأنك لم تعد تزعم أننى أستدعى شذاذ الآفاق وأنهج نهج المتبطلين .

فقال العباس إن كان زائروك من معدن هلال ! فأهلا بالزائرين .

فرفع أمير المؤمنين رأسه إلى هلال وقال لقد أسديت إلىّ أيها الرجل يداً بيضاء إذ كنت سببا فى ارتياح أخى العباس وانشراحه وسأكافئك

بما لا يندرج فى حسبانك من الأعطيات ! ! فأهلا بالعباس ومرحى برضاه . . .

قال العباس فى ابتسام وديع : أشهد لقد سررتُ بمجلس أمير المؤمنين .

فقال يزيد متهللا أزدْ سروره ياهلال وسأعفيك من رواية الشعر ، وإنشاده كما تحب ، فأتِ لنا من نوادر بسالتك ، ولن يطول بك الحديث .

فشخص هلال إلى يزيد فى اعتداد ثم مد بصره إلى العباس كمن يشكره فى صمت دون أن يبين . . . واندفع يقول .

ذهبتُ مع صديق لى إلى خيام بكر بن وائل وقد لغبنا وعطشنا ، وإذا نحن بفتية شباب عند بئر لهم وقد وردت إبلهم ، فاستهولوا مَرْآى واستفظعوا خلقى وقامتى وقام رجلان منهم فقالا : يا عبدَ الله هل لك فى الصراع فقلت فى حياء : أنا إلى غير ذلك أحوج ، فقالا وما هو ؟ قلت إلى لبن وماء فإنى لغب ظمآن ، فقال أحدهما لست بذائق من ذلك شيئا حتى تعطينا عهداً لتجيبنا إلى الصراع إذا شبعت ورويت فقلت فى هدوء أنا ضيف غريب والضيف لا يصارع مضيفه ورب منزله ، وأنتم مكتفون من ذلك بما أقول لكم فاعمدوا إلى أشد فحل فى إبلكم وأهيبه صولة وإلى أشد رجل منكم ذراعا فإن لم أقبض على هامة البعير وعلى يد صاحبكم فلا يمتنع الرجل ولا البعير حتى أدخل يد الرجل فى فم البعير فاعلموا أنكم صرعتمونى إذ لم أفعل ، وإن فعلته فإن صراع أحدكم أيسر من ذلك . . فعجبوا كثيراً من قولى . . ثم أشاروا إلى فحل فى إبلهم هائج صائل فأتيته وأخذت بهامته وضغطتها ضغطة ثقيلة جرجر الفحل منها واستخذى ورغا ثم قلت من شاء فليمد إلىّ يده فأدخلها فى فم هذا الفحل . . فلا والله ما تجرأ أحد وصاح الناس تنكبوا هذا الشيطان فما سمعنا هذا الفحل يجرجر قبل اليوم . . »

فنهض العباس يقول فى ابتسام تنكّب يا أمير المؤمنين عن هذا الفحل فما خلع قلبي لحديث كحديثه .. ثم استأذن ومضى فصفق يزيد فأحضر صاحب خزانته وأمره أن يحمّل هلالا من أعطياته ما يطيق .

فتبسم خازن المال فى أدب وقال : مخاطباً يزيد لئن حملتهُ ما يطيق ، ليحملنّ جميع ما فى الخزانة يا أمير المؤمنين ! !

فعجل هلال يقول متضاحكا لا بأس على الخزانة يا أمير المؤمنين فسأحمل منها دون ما أطيق ، وانصرف بسام الثغر ظاهر الارتياح ! !

خوارج اشداء

تأزمت الأمور بمروان بن محمد ذات ليلة وهو يجلس وحده فى قصره الشاهق بدمشق ، يفكر فيما يقاسيه من ويلات الحروب ، ومن الثائرين ، وقال فى نفسه : كنتُ أطمع فى الخلافة أملا فى هناءة العيش ، ورفاهية الأيام ، فما إن أخذتها بحد السيف حتى عدمت الراحة ، وجانبتُ الرقاد ! فما أنتقل من حومة إلا إلى حومة ، وما انتهى من دماء إلا لأصلها بجداول أخرى يختلط بها نثار الجماجم والأشلاء ! ! فقد شغب علىّ — لأول عهدى بالأمر — عبد الله بن معاوية بالكوفة ، فتوجهتُ إليه فى سفر جاهد ، وقيظ لافح ، وكابدتُ المصاعب حتى انتهيت من أمره ، فى حرج وضيق ، وكنت أظن الشام فى قبضة يدى كما كان من قبل فى حوزة آبائى من بنى مروان ، يصولون بجنوده ، ويحتمون بأسنته ، فرأيتهُ ينتقض علىّ مع المنتقضين ! ! فحمص تثور وتأبى البيعه ، وأتجشم فى إخمادها ما أتجشم من الصعاب ، ثم لا أكاد اضطجع بجنبى المرهق فى مرقده ، حتى تثور الغوطة وفلسطين . . . فأذهب إليهما كادحا غير مستريح ، وأرجع بعد إعياء إلى دمشق فأسمع أن ابن عمى سليمان بن هشام قد طلب الملك وخلعنى بقنسرين فأذهب إليه لاهثا مكدوداً وألاقى فى نضاله شرور البلايا وصنوف الدواهى !! وها هى ذى الأنباء ترجع إلى بثورة الخوارج ، ودخولهم الكوفة! فماذا أصنع الآن ؟ أأفر من الخلافة فأستريح ، وهبنى فعلت ، فبأى وجه أقابل الناس ، وما منهم إلا شامت مستهزىء يسخر بخيبتى المحزنة وفشلى الذريع ! !

هواجس حزينة مسهبة قد توافدت على خاطر مروان وأخذت عليه تفكيره فكان لها فى نفسه وقع النصال المسمومة ، وكلما حاول أن يتناساها لحظات

قصيرة كرت عليه بطعناتها الدامية ووخزاتها الأليمة !! وشاء أن يفرّ من وحدته القاتلة ، فصفق مرتبكا بيده ، وحضر خادمه ممتثلا ، فنظر إليه فى امتعاض ناقم ، وقال متعجلا : ادعُ إلىّ عبد الحميد الكاتب ، فأنا إليه محتاج إذ كان عبد الحميد موضع سرّ الخليفة وصاحب محنته ! فهو يستشيره فى كل أمر يعن له ، فيشير بما ينبىء عن حزم ودربة ، وقد لبى دعوته فحضر ليشاركه همومه وهواجسه، وكشف له الخليفة عما يختلج فى صدره من الهم ، فوجد الأذن الصاغية ، والقلب السميع ، حتى إذا أفرغ ما فى جعبته انبرى عبد الحميد يقول : لا تحزن يا مولاى فكم ليل تكاثفت ظلماته ، وادلهمت طرقاته ، ثم أسفر من بعده الصبح المبين ، ولئن اتعبتك الوقائع وشيبتك الحروب ، فقد أمدك الله بتأييده فرجعت منها مسدّد الخطوات منتصر الغزوات ، تعنو لك الرقاب وتنخلع هيبةً منك قلوب المتآمرين، فقال مروان : لو تفرغتُ للخوارج لأتيت عليهم ما بين ضحوة وعشية ، ولكن ثورات أبناء عمومتى من بنى مروان قد أنهكت القرى ، وشتتت الجهود، لقد كان الوليد بن عبد الملك وسليمان أخوه وعمر بن عبد العزيز ، ويزيد بن عبد الملك جميعا أحسن حظا منى ، فلم يشغب عليهم شاغب من ذوى القرابة ! فقضوا أيامهم فى سعادة شاملة ، وأنس ناضر !! وقد ظننت حين انتهى إلىّ هذا الأمر أنى سأنعم ببعض ما ينعمون ، فسعيت إلى الخلافة طمعاً فى الدعة والجاه ، ولم أدر أن الدهر قد قلب لبنى مروان المجنّ ، فهم فى شقائهم يعمهون !

فرد عبد الحميد فى صراحة تعودها منه أمير المؤمنين : إن يزيد بن الوليد قد فتح باب الكوارث على الخلافة حين ثار على سلفه الوليد بن يزيد واحتز رأسه فسنّ بذلك سنة سيئة نبهت المطامع إلى إمارة المؤمنين ، ولولا هذه الجريمة النكراء لبقى عرش مروان مهيباً جليلا لا تتطلع إليه العيون وأنت بدورك

يا أمير المؤمنين قد ثرت على إبراهيم بن الوليد واغتصبتَ عرشه منه ! فتوقع أن تهب عليك الزعازع من كل فج ، وهى كأس تدور ! !

فعضّ مروان على شفتيه وقال فى أسف : تعجبنى صراحتك يا عبد الحميد ! لأن وراءها رصيداً كبيراً من الثقة والإخلاص، وإنى لأستريح إلى استشارتك ومطارحتك لتطلعنى فى أمانة على رأيك الخاص فيما آتى من حسنات وهنات!! وكم فى الناس من مرائين خاتلين ، يتملقوننى بمعسول الحديث وعذب الرياء ! وقلوبهم تغفر بالضغينة وتئز بالحقود كقدر فوق النار ! !

فأطرق عبد الحميد كمن شرد فى تفكير عميق ! ثم رأى الخليفة يتطلع إليه منتظراً حديثه ، فسارع يقول : علم الله أنى أبذل نفسى فداء أمير المؤمنين ، وأن ولائى له يجرى فى عروق مجرى الدم ، ولئن كان فى حرب مع أعدائه ، فأنا معه أعانى برح ما يعانيه !! على أن الأمر أقرب إلى الأمل والتفاؤل ، فقد انهزم الثائرون من بنى أمية ، ولم يبق غير الخوارج ، وأمرهم يسير ! !

فتدارك الخليفة بقول معارضاً : أخطأت يا صديقى ! ! فالخوارج أقوى شكيمة ، وأرهب بأساً ممن تعرفهم من الثائرين ! وإن بنى عمى يجمعون الناس بالذهب والمال ، فإذا جد الجد ، وحمى الوطيس خاف كل مأجور على روحه ، وتفرق الناس أباديد ! ! أما الخوارج فأصحاب عقيدة دوّخوا علياً ومعاوية وعبد الله بن الزبير . . وجاء دورى الآن ، فثار ثائرهم أبو حمزة الخارجى بمكة والمدينة ، واجتمع إليه الناس من كل فج ، والعجيب أنه قاتل جيوش الخلافة بالحرمين الشريفين مجتمعين !! فاكتسحهم عن قوة وإيمان ، وانضم إليه الناس طواعية واختياراً ، فقد زعم المرجفون أن رجلا يبلغ بجيشه القليل هذا النصر الحازم ، لابد أن يكون مؤيدا من السماء !! ومحاطا بعناية الله ، وما أسرع العامة إلى تصديق الشائعات وإتباع الأراجيف ! !

فهز عبد الحميد رأسه ناقا متألما ، ثم قال : وهل انثالت علينا الشرور إلا من العامة !! إنهم فى كل مكان وزمان يتبعون كل ناعق ، فما إن يتقدمهم فارس شجاع ، يحمل راية ثائرة ، حتى يسرعوا إليه مختارين ، وكل يزعم لنفسه شأنا فى الدولة المرتقبة ، فينبه اسمه بعد خمول !! وما ظنك إذا كان ثائر اليوم أبا حمزة !! وهو إلى شجاعته المغامرة خطيب ساحر يستلين القلوب الصخرية بوعظه ، ويسبغ على نفسه هالة من الورع والجلال ، وقد خطب بمكة خطبة مجلجلة حفظها الناس كما يحفظون الأشعار بل كما يحفظون كتاب الله !! وجاءتنى بدمشق مع الرواة ، فأخذت نفسى شهد الله بحفظها واستظهارها ، وكأنها تنزيل من التنزيل !!

فنظر مروان كالمأخوذ ، وقال فى عجب : يا سبحان الله : عبد الحميد الكاتب سيد بلغاء عصره ، يستظهر كلام أبى حمزة الخارجى كأنه تنزيل حكيم !! ناشدتك الله إلا أسمعتنى بعض ما حفظت ، وما إخالك مخالفى إلى مالا أريد .

فقال عبد الحميد فى أناة : سمعاً وطاعة لأمير المؤمنين : بلغنى أن أبا حمزة الشارى صعد إلى المنبر ذات عشية يتحدث عن أصحابه فقال : « شباب والله مكتهلون فى شبابهم ، غضيضة عن الشر أعينهم ، ثقيلة إلى الباطل أرجلهم ، انضاء عبادة ، وإطلاح سهر ، باعوا أنفسا تموت غدا بأنفس لا تموت أبداً ، وقد نظر الله إليهم فى جوف الليل منحنية أصلابهم على أجزاء القرآن ، كلما مرّ أحدهم بآية . من ذكر الجنة بكى شوقاً إليها ، وإذا مرّ بآية من ذكر النار شهق شهقة كأن زفير جهنم بين أذنيه ، وقد أكلت الأرض ركبهم وأيديهم وأنوفهم وجباههم ، ووصلوا كلال الليل بكلال النهار ، حتى إذا رأوا سهام العدو وقد فوقت ، ورماحهم وقد أشرعت ، وبرقت الكتيبة ، ورعدت بصواعق الموت ، استخفوا بوعيد الكتيبة لوعيد الله ، ولم يستخفوا بوعيد الله

لوعيد الكتيبة ، فمضى الشاب منهم قدما ، حتى اختلفت رجلاه على عنق فرسه ، واختضبت محاسن وجهه بالدماء ، وعفر جبينه بالثرى وانحطت عليه طير السماء وتمزقته سباع الأرض ، فطوبى لهم وحسن مآب ، فكم من عين فى منقار طائر طالما بكى صاحبها فى جوف الليل من خوف الله ، وكم من يد قد أبينت عن ساعدها ، طالما اعتمد عليها صاحبها راكعا ساجدا ، وكم من وجه رقيق ، وجبين عتيق ، قد فلق بعمد الحديد !! ثم بكى وقال : آه على فراق الإخوان ، ورحمة الله على تلك الأبدان ، وأدخل أرواحهم الجنان » .

زفر أمير المؤمنين زفرة ملتهبة وقال فى انفعال : هذا سحر يؤثر ، هذه سهام البلاغة ونصال البيان ! ولعمرى لخطبة واحدة من هذا الطراز ، تصنع مالا يصنع الجيش الموار !! إن هذه الفصاحة الخالبة لن يقوم لها بالمعارضة والتفنيد غيرك يا عبد الحميد !! وما أظنك حفظت هذه المقالة إلا لتمزقها أربا أربا حين تسوق الجموع بأدلة قواطع وبراهين حداد !! فابتسم عبد الحميد فى اعتداد ، وقال . لقد اتفقنا يا أمير المؤمنين !! وأراك تسير معى فى الطريق ، فإذا دنا جيش الخوارج من دمشق بعثنا إليهم بمن يناقشهم الرأى ، ويعارضهم بالدليل ، وهم — بعد — أعراب جفاة لا يفطنون إلى حبائل الخداع ويكفى أن نتلو عليهم الآية من القرآن وأن نفسرها أمامهم بما يخذل عدوانهم وإذ ذاك ينقسمون على أنفسهم ويتقاتلون ، فرد مروان بعد إطراق . أنت لهم يا عبد الحميد! واستعن بحججك وبراهينك من الآن . فتلمس المشكل من الآيات ، والمتشابه من الحديث ، واقذف فى وجوههم بكل ما يعن ويخطر ولا أزيدك توصية ! فهذا ميدانك الأصيل . ثم سكت الخليفة قليلا . . . واستأنف يقول . ولكن هل فكرت فى رأيك هذا قبل الآن ، فأعددت فوارس الجدل وقوارع النقاش من قبل ، أم أن هذا الخطر الماكر قد سنح لك سريعا معى !!

فوضع عبد الحميد يده على جبهته كمن يستذكر ماضياً بعيداً ، ثم قال : لقد تتبعت أنباء الخوارج منذ شغبوا على علىّ بن أبى طالب ، وعرفت أن المهلب ابن أبى صفرة كان يستعين عليهم بالمكيدة الماكرة ، إذ أن شجاعتهم الباسلة كانت تضيق عليه الخناق ، فلجأ إلى الحيل والخداع .

فشخص أمير المؤمنين بعينه إلى صاحبه ، وقال : داهيةً كان المهلب بن أبى صفرة ! مَنْ لنا اليوم ببطل صنديد مثله ! فاذكرْ ما كان يصنع لنستفيد ! !

فأسرع عبد الحميد يقول : كان يجدُ سهام الخوارج تتقاطر على كتائبه كالمطر من أتباع قطرىّ بن الفجاءة ، فبعث عيونه متنكرين ، فعلموا أن صانع السهام حداد من الأزارقة له مهارته العجيبة ! وعرفوا اسمه ووصفه ثم رجعوا بهما إلى المهلب ، فلجأ إلى الخديعة وكتب كتاباً إليه يشكره على هديته المزعومة له من السهام ويمنحه ألف دينار ! وبعث بمن أوقع الكتاب والمال فى يد قطرى ، فتوهم أن الأمر صحيح ، وجاء بالحداد فقتله ، فثار الأزارقة ناقين ، وقالوا لقطرى : كيف تقتله دون بينة ، ورفعوا الرماح متناحرين !

فقال مروان : حيلة مثمرة دون نزاع ! ! ألديك غيرها من فنون المهلب ودواهيه ؟

فأجاب عبد الحميد : لقد أرسل المهلب رجلين من أعوانه إلى أتباع قطرى ، وأمرهما أن يظهرا طاعته ويعلنا أنهما من الخوارج عن يقين ، ثم طلب من أحدهما أن يسجد لقطرى أمام الناس ، فإذا فعل ذلك قام الثانى غاضباً وقال : إنكم وما تعبدون من دون الله حصب جهنم أنتم لها واردون ، فكان ما اتفق عليه !

واختلف الخوارج اختلافاً عظيماً ، فقائل : إنه عبد قطرياً من دون الله ،

فقطرى من حصب جهنم ، وقال آخرون : عبد المسيح وليس من حصب جهنم !
ثم تشاجر الجمعان وانتهى خلافهما إلى بلاء عظيم !

فرد الخليفة يقول : هنا يثمر اللجاج والنقاش ! وقد أخذت برأيك ، وستكون رسولى إليهم إن هاجموا دمشق قبل أن يلتحم الفريقان ، وعليك أن تختار ظهيراً لك من ذوى اللسن والإفصاح فيشد أزرك فيما تريد ! فمن يسد هذا المسد الخطير ! ؟

فسكت عبد الحميد مفكراً ثم قال : لا أعرف غير واصل بن عطاء مِدْرَهًا فيصلا يقرع البرهان بالبرهان !

فأجاب الخليفة فى جد : وأنا أعلم ما تتوقل عن واصل من الإقناع والسداد وأحب أن أراه لنتفق على ما يكون .

فأسرع عبد الحميد يقول واثقاً مؤكداً : سآتيك به متى جاءنى ! ثم نهض مستأذناً فأذن له الخليفة . . . على أن يتقابلوا جميعاً فى مدى قريب .

— ٢ —

حان لقاء واصل فقد حضر إلى قصر الخليفة ملبياً دعوته ، وقابله عبد الحميد فحيّاه وصافحه ثم اصطحبه إلى مجلس أمير المؤمنين ، وكان فى ملأ من الرعية يستمع إلى المظالم ويناقش المتخاصمين ، فأمر ، فأخلى المجلس سريعا وتفرق الناس ودعا الخليفة صاحبيه فآخذا مكانهما ، ثم بدأ مروان مبتسما . لقد سمعت أنك خارجى ياواصل ، !!

فضحك واصل فى أدب وقال . وأنا سمعت ذلك أيضا ياأمير المؤمنين !

فابتسم مروان وقال . أوافقهم فى بعض مايعتقدون ! فرد واصل فى حزم .

هم مسلمون على كل حال ، وأمير المؤمنين حفظه الله يوافقهم أيضا على بعض ما يعتقدون !! فضحك عبد الحميد و نظر إلى مروان قائلا : هذا أول الغيث يا أمير المؤمنين ! فقال مروان فى خبث : بل هذا أول السن والإلحام !

فابتسم واصل وقال . سأروى لك شيئاً عن الخوارج يا أمير المؤمنين ، فقد وقعت أسيراً فى أيدى جماعة منهم ، وتحققت القتل إن جاهرتهم بما أعتقد دون إنكار ، فالجأت إلى الحذر ونجوت !

فسأل مروان . و كيف سهل باب النجاة ؟

فقال واصل فى دعابة . سألنى القوم من أنت ؟ فقلت مشركٌ مستجير ! فصاح قائلهم . و إن أحد من المشركين استجارك فأجِرْه حتى يسمع كلام الله ، ثم أبلغه مأمنه فقلت وأين المأمن ؟ فتركونى أسير .

فاستدرك عبد الحميد يقول . لو قال واصل أنه مسلم لا مشرك لأزعجوه بالأسئلة وقتلوه !

فابتسم واصل وقال . كتب الله لى أن أعيش .

فنظر مروان إلى واصل طويلا ، ثم سأله فى اهتمام . و كيف علمت أنهم يتركون المشرك ويقتلون المسلم !!

فأجاب واصل فى انتباه . علمت أكثر من ذلك يا أمير المؤمنين، فقد قابلوا مسلماً وذمياً ، فقتلوا المسلم واستوصوا بالذمى خيراً ، قابلهم عبد الله بن خباب ابن الأرث ، وفى عنقه مصحف ، ومعه امرأته وهى حامل ، فقالوا له . ما تقول فى أبى بكر وعمر فأثنى خيراً . فقالوا وما تقول فى علىّ وعثمان ، فأثنى خيرا ، فما تقول فى التحكيم . فقال فى إخلاص . إن عليا أعلم بكتاب الله منكم، وأشد توقّيا لدينه ، وأنفذ بصيرة ، فصاحوا فى غضب . أنت لست تتبع الهدى

ثم قربوه إلى النهر وذبحوه أمام امرأته ، أما الذمى فقد وجدوا معه تمراً ، فاخذوه بثمنه ! فقال فى عجب . تقتلون ابن خباب ! ولا تاخذون التمر دون أجر ! !

فنظر مروان إلى واصل ، وسال فى لباقة . وما تقول فى تعليل ذلك ؟

فقال واصل يا أمير المؤمنين ، الخوارج قوم يعتقدون أنهم على حق ، ولكن حظهم من العلم قليل ، وقد اختلفوا على علىّ دون موجب ! إذ أشاروا عليه بالتحكيم فقبله مكرها ، حتى إذا انكشف عن لجاج وفتنة نقموا على التحكيم وخالفوا عليا من أجله ، وهم مقترحوه ! ولو كان على ممن يقبل المداجاة والمداهنة لاسترضاهم بقول يسير لا يعتقده فأمن الخلاف ! !

فالتفت مروان إلى عبد الحميد وقال له : تعجبنى صراحة واصل ، ومثله من يعتمد عليه فى ثقة ويقين !

فأطرق واصل لحظات ثم قال فى رفق وتهذيب : يا أمير المؤمنين ، لقد سلك الخلفاء من لدن على مع الخوارج سبيل الدماء والحروب ، وما أرى من وفق معهم فى أمره ، كعمر بن عبد العزيز إذ منع الحرب ، فلم يسلّ سيفا على معارض ، ودعا برئيسهم شوذبا اليشكرى إلى المناظرة والحجاج ، فأرسل إليه اثنين من أتباعه ، ودار النقاش بينهما وبين أمير المؤمنين فاقتنع أحدهما برأى عمر وانضم إليه ، ورجع الآخر فأبلغ شوذبا أن الكلام قد انقطع به فما يجد الدليل ... وهكذا عصم عمر رضى الله عنه دماء أصحابه أن تراق .

فانتهز الخليفة مجرى الحديث وقال فى انتهاء : وسأوفدك مع عبد الحميد إليهم إذا طرقوا أبواب دمشق فى موكب أبى حمزة الخارجى ، ولى فى حجتكما البالغة ، وجدلكما الصائب ، ما يشفى صدور قوم مؤمنين !

فتهلل وجه واصل وقال فى ابتسام . سيصنع الله كل خير لأمير المؤمنين ، فتابع الخليفة يقول . على أنى لن أدخر وسعا فى إعداد القوة ، وتعبئة الجيوش ، فإذا لم تصلا مع القوم إلى رأى ، فالحرب قائمة بيننا على قدم وساق ! حتى نحمى العرين ، فلم يتريث واصـــــل وقال . إن الحرب — يا أمير المؤمنين — لن تبلغ من القوم مبلغ الجدال ، وقد عبأ الحجاج جيوشه فما استأصل لهم شأفة ، وبذل زياد بن أبى سفيان مكيدته وحربه فما سحق لهم هيبة ، بل أن شبيبا الخارجى دخل الكوفة عرين الحجاج ، وطاف بها ، وقتل كثيراً ممن يعتصمون بمساجدها ، وبعث الإرهاب فى النفوس دون إحجام فرد عبد الحميد يقول — وقد توجه بالحديث إلى واصل — أما إن ذكرت شبيبا فاعلم أنه أشد الخوارج ! لقد هزم جنود الحجاج بسبعين رجلا من أبطالها .

وحين دخل بقومه الحصن أوقد الحجاج عليهم النار المشتعلة فكادت أن تأتى عليهم ، على قلتهم القليلة ! فامتشق شبيب السيف وتقدم أصحابه ثم هجم على اللظى نخاضة كالماء غير هياب ! ! وانتبه الحجاج فإذا زبانية جهنم يخرجون من النار ويهجمون بغتة فينتصرون ! ! ويمينا لولا أن شبيبا قد غرق بدجلة ، لأمر لا حيلة له فيه ما تراجع عن الحجاج !

فاشار واصل إشارة الموافق وقال فى تعقل رزين . إن شجاعة شبيب مقبولة معقولة ، فهو رجل على كل حال ! ولكن ما رأيك فى شجاعة غزالة وقد أقسمت لتلجن على الحجاج غابه ، فتصلين فى مساجد الكوفة صلاة كاملة بمطولات القرآن . . ثم اقتحمت الحصار وبرت باليمين ! !

والحجاج خائف طريد يستمع إلى قول مُعيِّريه .

هلاّ برزتَ إلى غزالة فى الوغى
بل كان قلبك فى جناحى طائر

فرد عليه الكاتب يقول : هو ما ذكرت يا أخى : ثم توجه بنظره إلى أمير المؤمنين وقال فى أدب : لا شىء أجدى من الإقناع والجدل يا مولاى هساهم يختلفون !!

فهز الخليفة رأسه موافقا ، وأثنى على واصل ثناء مستطابا ثم خلع عليه ، واستمهله إلى وقت قريب ، حين تأزف الآزفة فيكون مع صاحبه سفيرى أمير المؤمنين :

وخرج الرجل كما جاء مبجلا مشكوراً ، وهم عبد الحميد بالذهاب معه ، فأشار عليه مروان أن يتريث ، فجلس مفكراً يستشف ما هجس بصدر مروان بعد لقاء واصل ، وانتظر أن يصل معه ما انقطع من الحديث فى أمر الخوارج ، وأعد لكل سؤال جوابه السديد ولكن الخليفة يقول : لقد انتهينا من أمر أبى حمزة الخارجى إلى حل موفق ، فماذا تقول فى أمر نصر بن سيار !!

ففوجىء عبد الحميد بسؤال لم يتوقعه ! وسأل فى دهشة : ما خطب نصر ابن سيار يا أمير المؤمنين ؟!

فقال الخليفة متضايقا : لقد كتب إلى من خراسان يخبرنى بظهور أبى مسلم الخراسانى وقيامه بالدعوة لبنى هاشم ! وقد التف حوله العدد الكثير .

فعضّ عبد الحميد على شفتيه ، وقد أذهلته المفاجأة الباغتة ، فجعل عرقه

يتساقط ثم قال فى انقباض عابس أمهل نصراً يا أمير المؤمنين ، واكتبْ له أن يقاوم وحده بمن معه من الجيش دون انتظار إلى مدد لاحق من الشام ! ! أما نحنُ فلن نحارب فى جبهتين مختلفتين ، فإذا فرغنا من الخوارج فدوننا خراسان ! !

فقال مروان ، فى ضيق متأزم : إنّ عذابى لطويل ، ونهض قائما . . . فخرج وراءهُ عبد الحميد . . .

محتويات الكتاب

رقم الإيداع ٤٣٥١ / ١٩٨٠


مطبعة السعادة
ميدان احمد ماهر
٩٠٧٣٧٩